أضواء على تاريخ العالم القديم

تأليف

عبد الفتاح السرنجاوي

الكتاب: أضواء على تاريخ العالم القديم

الكاتب: عبد الفتاح السرنجاوي

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

السرنجاوي ، عبد الفتاح

أضواء على تاريخ العالم القديم / عبد الفتاح السرنجاوي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٨٦ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٣ – ٤١٨ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٢٧٧٣٠ / ٢٠٢١

أضواء على تاريخ العالم القديم

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تمهيد

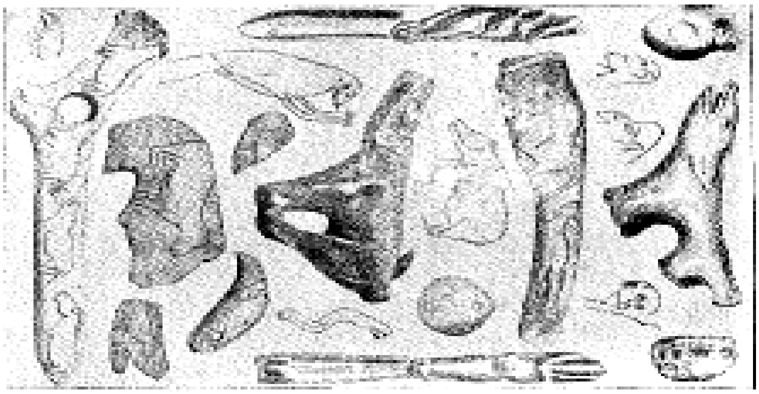
ما قبل التاريخ

تعلم الإنسان الكتابة منذ سبعة آلاف سنة تقريبا واستطاع من ذلك الوقت أن يدون أخباره على الآثار التي تركها من بعده، وبدراسة هذه الآثار عرفنا الشيء الكثير عن أحوال الإنسان الأول، ولذا نعتبر استعمال الكتابة بدء العصور التاريخية.

أما العصور السابقة لمعرفة الكتابة فتسمى عصور ما قبل التاريخ، وهي لا شك أطول بكثير من عصرنا التاريخي بحيث لا يمكن قياسها به، وكل ما تركه الإنسان في عصور ما قبل التاريخ قاصر على حراب وأدوات وآنية كان يستخدمها في حياته اليومية، تضاف إلى هذا عظام الحيوانات التي كان يصيدها وأشياء أخرى من بقايا الكهوف التي كان يعيش فيها.

ويقسم ما قبل التاريخ إلى عصور أولها العصر الحجري، وفي أوائله كان الإنسان متوحشا يعيش على الصيد وجمع الثمار ولا يستقر في مكان واحد، ولكنه تدرج في الرقي فترك الطريقة القديمة، طريقة استخدام أسنانه وأظافره للصيد والدفاع عن نفسه، وبدأ يصنع الأواني والأدوات التي يحتاج إليها من الحجر، وفي أواخر العصر الحجري توصل الإنسان إلى إيقاد النار واستخدامها وترك عيشة التجول وتعلم الزراعة والاستقرار وتربية الماشية، ومكنته الزراعة وتبادل المنافع مع بني جنسه من تكوين الهيئات الاجتماعية،

وليس من شك في أن نشوء بيئة زراعية يستلزم قيام صناعات ساذجة تحتاج إليها الزراعة، ويستلزم كذلك أن يسود القبيلة أو الجماعة رئيس من أهلها يرعى أفرادها ويفصل فيما ينشأ من بينهم من نزاع، وهكذا نشأت في أواخر العصر الحجري البذرة الأولى لنظام الحكومة الملكية.



نقوش الإنسان الأول على العظام وجدران الكهوف التي كان يأوي إليها قبل التاريخ

ولما كانت الزراعة أساس تحضر الإنسان الأول فقد نشأت الحضارات القديمة إلى جوار الأنهار العظيمة وفي الأماكن التي تتوفر فيها الشروط لنجاح الزراعة، ففي وادي النيل نشأت الحضارة المصرية، وفي وادي دجلة والفرات قامت حضارة البابليين والأشوريين والكلدانيين، وعن هذه الحضارات كلها أخذ الإغريق والرومان.

وانتقل الإنسان من العصر الحجري إلى العصر البرونزي حين تمكن من استخدام النحاس، ثم خلطه بالقصدير فكون معدنا جديدا أكثر صلابة هو البرونز، صنع منه الأواني والأدوات التي احتاج إليها.

وأخيرا عرف الإنسان الجديد كيفية إحمائه وطرقه فصنع منه أدواته وانتقل إلى العصر الحديدي.

ويلاحظ أن العالم كله لم يكن متفقا في استخدام هذه المعادن، فبينما كان قدماء المصريين منذ ألف وخمسمائة سنة قبل ميلاد المسيح يستعملون الحديد كان الإغريق يستعملون البرونز وكان سكان أوروبا الشمالية لا يزالون في العصر الحجري.

وتنقسم شعوب الأرض إلى ثلاثة أقسام:–

(١) الشعوب الآرية وهي التي كانت تربطها كلها منذ عصور ما قبل التاريخ لغة واحدة هي اللغة الآرية التي كانت سائدة في أوروبا وبعض أجزاء آسيا، والتي تفرعت عنها اللغات الهندية واللاتينية والإنجليزية.

(٢) الشعوب السامية وكانت تربطها اللغة السامية التي تفرعت عنها لغات أهمها العبرية والفينيقية والعربية، وأكبر عامل يميز الشعوب السامية ظهور الأديان السماوية الثلاثة بينهما على يد موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام.

(٣) الشعوب الطورانية التي كانت تسكن بقية آسيا ومنها الصين والمغول والترك.

القاهرة في أكتوبر سنة ١٩٣٦

الكتاب الأول

مصر وعلاقاتها بدول الشرق القديم

بابل، أشور، كلديا، بنو إسرائيل، الفينيقيون، الفرس

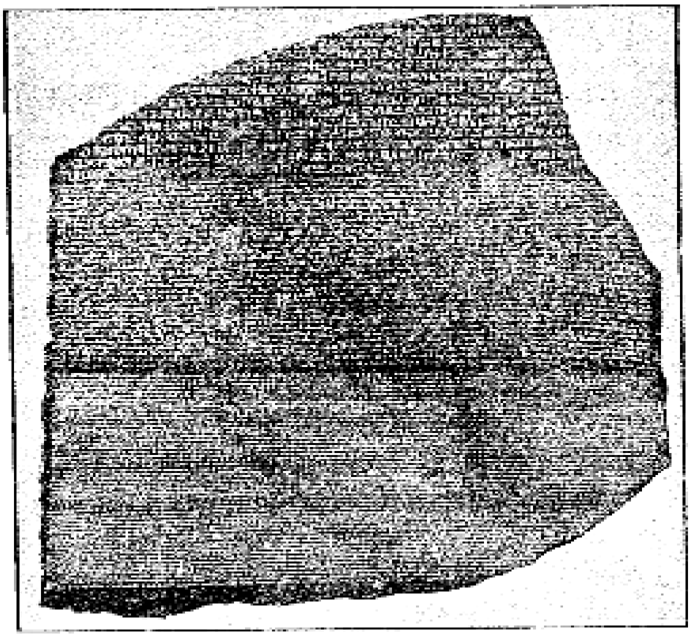
الفصل الأول

مصادر تاريخ مصر

مصر أقدم بلاد العالم، وآثارها الباقية حتى اليوم أقدم المخلفات التي تركها الإنسان الأول، وهذه الآثار مصدر هام اعتمدنا عليه في معرفة الكثير من تاريخ قدماء المصريين، فقد دونوا أخبارهم وحروبهم وصوروا حياتهم اليومية واضحة على جدران معابدهم ومقابرهم، وتركوا ملفات البردي حافلة بآدابهم وقصصهم وأدعيتهم الدينية، ويرجع الفضل الأكبر في بقاء هذه الآثار حتى اليوم إلى الجفاف الذي أمتاز به مناخ البلاد.

ولكن وجود هذه الآثار وما عليها من نقوش وكتابات لا يجدي نفعا مع جهلنا اللغة الهيروغليفية التي كان يكتب بها المصريون القدماء، ولذا ظل تاريخهم مجهولا وبقيت كتاباتهم طلاسم لا يمكن الانتفاع بها حتى جاءت الحملة الفرنسية على مصر وعثر (بوسار) أحد ضباطها سنة ١٧٩٨ على حجر هام عند رشيد يرجع تاريخه إلى عهد البطالسة، وعليه عبارة مكتوبة بثلاث لغات (أ) الهيروغليفية وهي لغة الكتابة عند المصريين (ب) الديموطيقية، وهي لغة التخاطب العامية (ج) اللغة الإغريقية.

وبمقارنة أسماء الأعلام في اللغات الثلاث تمكن "شامبليون" العالم الفرنسي من حل رموز اللغة المصرية القديمة في أوائل القرن.



حجر رشيد

هو كتلة من البازلت الأسود طولها ثلاثة أقدام وتسع بوصات وعرضها قدمان وأربع بوصات ونصف، عليه عبارة مكتوبة بثلاث لغات تقع في ١٤ سطرا باللغة الهيروغليفية و٣٢ سطرا بالديموطيقية و٥٤ سطرا بالإغريقية، عثر عليه (بوسار Boussard) أحد ضباط المدفعية في الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ قرب رشيد ثم نقل إلى القاهرة ليدرسه أعضاء المجمع العلمي عام ١٧٩٩، وفي سنة ١٨٠١ استولى عليه الإنجليز ونقلوه إلى إنجلترا وهو لا يزال حتى اليوم محفوظا بالمتحف البريطاني في لندن. وبذا ألقى ضوء جديدا على تاريخ الفراعنة.

وكتب عن مصر كثير من المؤرخين القدماء أهمهم هيرودوت وديودور ومانيثون واسترابو.

ولد "هيرودوت" المؤرخ الإغريقي عام ٤٨٤ ق.م. وطاف أوروبا وآسيا وأفريقيا وأخيرا مات في إيطاليا. وترجع شهرته العظيمة إلى كتاب ألفه في التاريخ القديم، وينقسم تاريخه هذا إلى قسمين:

(١) معلومات كتبها بنفسه وبناها على مشاهداته الخاصة وهذا تعتبر حجة في الرواية والصدق، لأن الآثار التي كشف عنها المنقبون في كثير من جهات العالم القديم جاءت مصدقة لما بين أيدينا من كتاباته.

(٢) معلومات سمعها أو نقلها عن الكهنة والعامة وهذه لا يصح الاعتماد عليها.

أما "ديودور" فمؤرخ صقلي عاصر يوليوس قيصر وأغسطس في القرن الأول الميلادي، طاف معهم معظم أنحاء العالم القديم، وترتكز شهرته على مؤلفه الذي أسماه (المكتبة التاريخية). وتناول فيه الكلام عن التاريخ العام منذ بدايته حتى عهد قيصر، ويقع في أربعين كتابا وصل إلينا منها خمسة عشر كتابا، وهذا المؤلف لا يصح الاعتماد عليه كمرجع تاريخي صحيح.

وكان (مانيتون) أمينا للسجلات المصرية في عهد "بطليموس الثاني" وهو من الكهنة العظام الذين تشبعوا بالثقافة الإغريقية، أمره "بطليموس" أن يكتب تاريخ مصر فاستعان بالسجلات والمخطوطات المحفوظة في المعابد

وكتب كتابا قيما قسم فيه تاريخ مصر إلى أسرات بدأها بالملك "مينا" وتقسيمه هو الأساس الذي بنى عليه المؤرخون كتاباتهم عن مصر.

ولم يصل إلينا من هذا الكتاب إلا الفهارس الخاصة بتتابع الأسرات، أما الكتاب نفسه فقد ضاع، وكتابة "مانيثون" تمتاز بالدقة وتمحيص الحقائق التاريخية.

أما ساترابو فهو مؤرخ إغريقي عاش في روما ومات عام ٢٤ ميلادية، بعد أن طاف بلادا كثيرة منها مصر، وكتب تاريخه في ٤٣ كتبا فقدت كلها، وبرغم أن كتابته طلية شائقة فإنه لا يصح الاعتماد عليها من الوجهة التاريخية.

الفصل الثاني

أثر العوامل الطبيعية في حضارة مصر

مصر كما قال هيرودوت "هدية النيل" وهذا معناه أن كيانها الاقتصادي قائم على أساس الري والزراعة، ولولا النيل لكانت جزءا من الصحراء التي تحف بجانبيها من الشرق والغرب، فالنيل هو الذي جعل سكان مصر يتركون عيشة التجول والصيد ويستقرون ويفكرون في فلاحة الأرض وتربية الماشية وردم الأحراش والمستنقعات التي كانت تعم الدلتا في عصور ما قبل التاريخ، أضف إلى هذا ما تمتاز به أرض مصر من الخصب وما أودع في مناخها من الصلاحية للزراعة والحياة المستقرة.

ولا يجب أن ننسى أن مصر محمية حماية طبيعية، لأن وجود البحر في شمالها والصحراء على حافتها والجنادل جنوبها جعل من الصعب غزوها، ولذا تركت هادئة تسير في سبيل الرقي دون أن يعوق تقدمها عائق خارجي.

ولما كانت مصر شريطا ضيقا من الأرض ممتدا على جانبي النيل فقد صعب في عصور ما قبل التاريخ وجود حكومة مركزية تحكم مصر كلها، ونشأت حكومات ملكية صغيرة أشبه بالمديريات أو المراكز الآن، ويقول بعض المؤرخين إن هذه الأقسام كانت في وقت ما أكثر من مائتين، ولكنها اندمجت بالتدريج حتى تكون منها القطران مصر العليا ومصر السفلى، وأخيرا توحد القطران وحكمهما الملك "مينا" فرعون الأرضين.

ولما كانت البلاد في أول أمرها مقسمة إلى الممالك الصغيرة التي ذكرناها، وكانت كل مملكة ترغب في تقوية نفسها بحيث تفوق جاراتها، نشأ من هذه الناحية تقسيم اجتماعي وشعور بالمنافسة، ومن مظاهر ذلك أن كان لكل مملكة صغيرة عاداتها وأنظمتها، وكان يحمل كل قارب في النيل راية تمثل المقاطعة التي ينتمي إليها، ولكن التعارف الذي بدأ يزداد بين هذه الأقسام عن طريق التجارة النيلية دمجها في بعضها، ويلاحظ أن التعصب بقى زمنا طويلا حتى بعد توحيد القطرين، إذ بقيت لأهل الصعيد عاداتهم ولهجتهم التي كانت تخالف من وجوه كثيرة ما لأهل الشمال، ولا نغالي إذا قلنا إن هذه الروح لا تزال باقية حتى اليوم إلى درجة محدودة.

ولم تكن حضارة مصر زراعية محضة لأن الزراعة كما قلنا لابد وأن تجر في أذيالها الكثير من الصناعات اللازمة لها، أضف إلى هذا أن وجود الأحجار على اختلاف أنواعها في مصر جعل المصريين يحفرون التماثيل ويقيمون المباني العظيمة، ونظرا لجفاف الجو بقيت هذه الآثار حتى اليوم، وكان لوجود النحاس في سينا والذهب في بلاد النوبة ما شجع المصريين على صنع الآنية الجميلة والحلي الدقيقة.

وبرغم حماية مصر الطبيعية فأن موقعها ساعد على الاتصال بشعوب أوروبا وآسيا، وسكان الصحراء المحيطة بها، وقد وجد الباحثون أن الكتابة المصرية بها أوضاع من الكتابة الصورية الأسيوية، ثم وجدت بها كذلك عناصر تشبه كتابة سكان الصحراء ولذا يرجح بعض المؤرخين أن الشعب المصري

خليط من السامين وأهل الصحراء الذين جلبوا لمصر الحضارة، ولكن بعض المؤرخين لا يقر ذلك ويؤكد أن حضارة مصر إنما قامت في وادي النيل ولم تجلب من الخارج.

ولما كان اتصال مصر بدول أوروبا وحوض الفرات ودجلة عن طريق الدلتا، فإن بعض المؤرخين يؤكد أن الدلتا كانت قبل التاريخ أكثر تحضرا من الصعيد.

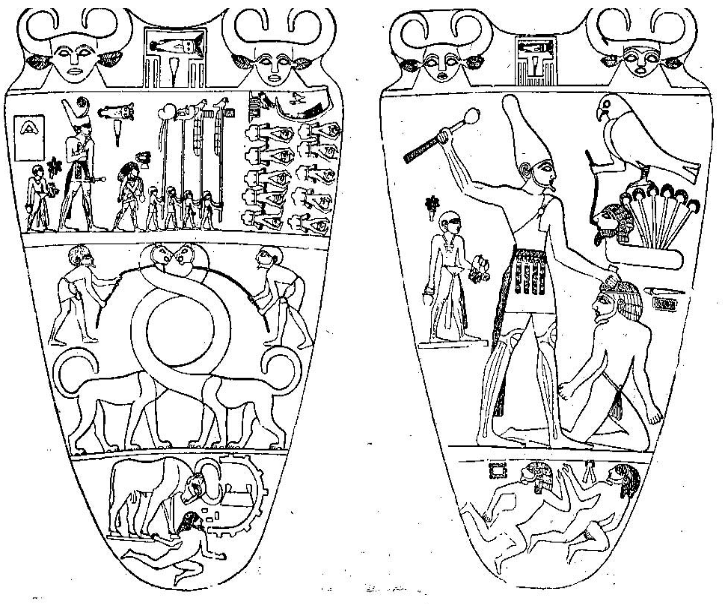
الفصل الثالث

الأسرات الثلاث الأولى

يبدأ التاريخ المصري "بالملك مينا" وهو أول فرعون حكم القطرين بعد توحيدهما، ويعتبر حادث التوحيد انتصارا لمصر العليا على الدلتا، لأننا عثرنا على الآثار التي تثبت ذلك الحادث في الصعيد. ولما كان المصريون القدماء محافظين على القديم فأنهم ظلوا بعد حادث التوحيد يلقبون فرعون "بملك الأرضين" ويضعون على التاج زهرتين تمثل إحداهما الجنوب وتمثل الأخرى الدلتا.

وأقدم آثار ذلك العصر لوحة عثر عليها في مدينة "هيراقنبوليس" التي كانت العاصمة القديمة للصعيد قبل التوحيد لا تزال حتى اليوم في متحف القاهرة، نقش على وجهها رسم يمثل "الملك نارمر" ملك الصعيد وقد لبي تاج الدلتا الحمر وخرج وأمامه الأعلام كي يشهد الحرب ويستعرض جثث العدو التي فصلت عنها رؤوسها، وفي أسفل اللوحة رسم يمثل الملك عجلا قويا يهدم حصون العدو.

أما ظهر اللوحة فعليه رسم يمثل "مينا" ملك الجنوب وقد انتصر على ملك الشمال، ويظهر "مينا" وقد لبس تاج الصعيد الأبيض وقبض بيسراه على ناصية أحد الأسرى وأمسك بيمناه صولجانا ذا رأس تشبه الكمثرى وهو لا شك من نوع الحراب التي كانت تستخدم في ذلك الوقت.



"الوجه" "الظهر"

وطول كل منهما في الأصل ٦٣ سنتيمترا

برغم أن هذه اللوحة تدل على أن حادث التوحيد انتصار لمصر العليا على الدلتا فإن المؤرخين المحدثين مثل الأستاذ (ولول) والأستاذ (ويجال) يرون أن الملك (مينا) ليس مصريا وإنما هو سومري جاء بجيش كثيف من بلاد النهرين عن طريق البحر الأحمر ثم نزل مصر وسار في طريق الصحراء حتى وصل إلى النيل عند مدينة قفط القديمة واستطاع الاستيلاء على الصعيد ثم تقدم شمالا واستولى على الدلتا وجلس على عرش البلاد الموحدة. وهذا معناه أن الحضارة المصرية تأثرت في فجر الحضارة بحضارة الغزاة السومريين.

ويمكن أن نستنتج من دراسة هذه اللوحة أن حادث التوحيد لم يتم على يد "مينا" وحده ولكن جاهد أسلافه في سبيل التوحيد، أما "مينا" فكان أول فرعون جلس على عرش البلاد الموحدة.

وكان المصريون في عصر التوحيد قد تعلموا الزراعة وتركوا حياة التجول والصيد وتعلموا تربية الماشية، وكانوا يعيشون في بيوت من اللبن ويصنعون القوارب من الخشب والبردي، وكان لديهم كثير من العاج وقليل من النحاس والذهب لصناعة الحلي، ويتميز بتقدم في صناعة الأواني الخزفية وبعض الأدوات المصنوعة من حجر الصوان، وبرغم أنهم كانوا في فجر تاريخهم فأنهم أتقنوا صناعة هذه الأدوات الحجرية الدقيقة، وكانوا قد بدأوا ينظمون مياه الفيضان ويوزعونها بما يعود عليهم بالفائدة، أضف إلى هذا نبوغهم في نسج الكتان من الخيوط الدقيقة، ثم أنهم بدأوا في ذلك الوقت يستعملون الكتابة الصورية، وتدل النقوش التي عثر عليها المنقبون على جدران المعابد أن مدنا هامة نشأت قرب "قفط" في الوجه القبلي "وطينة" التي موقعها جرجا الحالية، والتي يقول المؤرخون إنها مهد ملوك الأسرتين الأولى والثانية، وكان يعتقد المصريون أن الإله "أوز وريس" قد دفن إلى ناحية الغرب من طينة وكان معبده هناك أقداس بقعه في البلاد كلها.

أما الوجه البحري فأخباره غامضة ولا نعرف منها أكثر من أن العاصمة قبل التوحيد كانت مدينة (بيتو) وأن معبد "رع" في "هليوبوليس" كان أقدس بقعة في الدلتا.



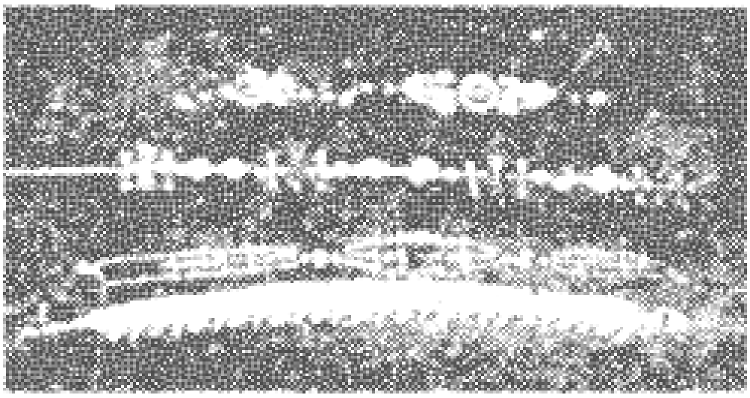
تمثال رع حتب وزوجته نفرت

وأسس "مينا" الملك الطيني عاصمة جديدة عند ملتقى القطرين على بعد أميال قليلة جنوب القاهرة الحالية أسمها "منف" وبنشوئها أصبحت عبادة "فتاح" الإله المحلي بها عبادة عامة وعظم شأنه وأحاطت المباني بذلك المكان الجديد، وبرغم أن منف كانت عاصمة ومقرا للملك منذ حادث التوحيد فإنها ظلت قرونا عديدة لا يدفن فيها الملوك، فمثلا ملوك الأسرتين الأولى والثانية كانت مدافنهم في أبيدوس على شكل مصاطب هائلة.

ومن آثار الأسرة الأولى حلي جميلة لإحدى ملكاتها وجدت بقبرها في أبيدوس، وهي تدل على دقة فائقة في صناعة الحلي المعدنية، أما الأسرة الثانية فلم تكن آثارها على شيء كبير من الدقة.

وبانتقال القبور إلى منف في عهد الأسرة الثالثة تقدمت البلاد تقدما عظيما، وتجلت مقدرة الصانع المصري في إتقان الأواني المعدنية وحفر الأحجار والتفنن في تزيين المقابر.

بدأت صناعة الحلي النحاسية من الأسرة الأولى ولكنها تقدمت في عهد الأسرة الثالثة تقدما عظيما وظهرت قطع أخرى من العاج مثل الأمشاط والملاعق المحفوظة في متحف القاهرة، وعثر في قبر "هسي" بسقارة على آثار تدل على رقي في صناعة الأثاث والنجارة.



حلي لأحدى ملكات الأسرة الأولى عثر عليه في أبيدوس



هرم زوسر المدرج بسقارة

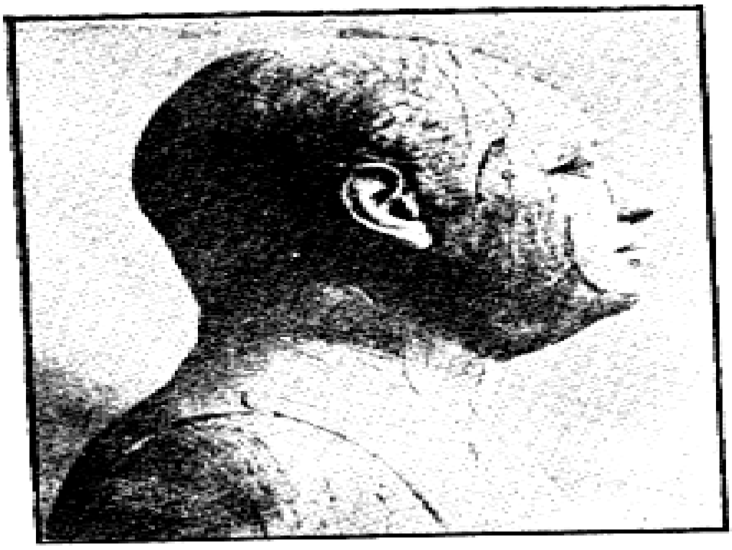
وأهم شيء في حضارة الأسرة الثالثة الانتقال من بناء المقابر على شكل مصاطب والتدرج بها إلى فكرة الأهرام. ومن أهم آثارها هرم "زوسر" أول ملوك الأسرة الثالثة في سقارة، وهو مكون من ست مصاطب فوق بعضها بشكل مدرج ينتهي من أعلى بمصطبة صغيرة، وهذا الهرم أقدم بناء من الحجر في التاريخ القديم.

ولزوسر مقبرة أخرى لم تتم قرب زاوية العريان الواقعة جنوب أهرام الجيزة على مسيرة ساعة في طريق سقارة، ونستدل من قطع الجرانيت الضخمة التي بنيت منها جدران المقبرة على مقدار ما وصل إليه فن البناء من التقدم العظيم في عهد الأسرة الثالثة.

وللملك "سنفرو" آخر ملوك الأسرة الثالثة هرمان أحدهما في دهشور والآخر في ميدوم.

ومن أهم آثار الأسرة الثالثة تمثال "رع حتب" قائد الجيوش المصرية في عهد "سنفرو" وتمثال بلغ منتهى الدقة والجمال للأميرة "نفرت" وهما أقدم تماثيل العالم التي تمثل الأشخاص، وقد عثر عليها في إحدى مقابر الأسرة الثالثة، ومن القطع الخالدة تمثال الكاتب المتربع وهو محفوظ الآن في متحف اللوفر بفرنسا، ثم تمثال شيخ البلد المصنوع من الخشب، وكلها تدل على تقدم عظيم في صنع التماثيل.

وخلاصة القول أن حضارة الأسرة الثالثة كانت ممهدة للرقي الفني العظيم في عهد الأسرة الرابعة.



رأس تمثال شيخ البلد وهو مصنوع من الخشب الجميز ومحفوظ في متحف القاهرة

الفصل الرابع

تدرج المقبرة

في عهد الأسرات الثلاث الأولى كان الملوك وكبار ملاك الأرض على جانب عظيم من القوة والثراء، فقد أثبت التنقيب أن الرجل الغني كان يملأ بيته بالتحف والنفائس المصنوعة من الذهب والأحجار الكريمة، ولكنه كان يعيش في بيت مبني من قوالب اللبن المجفف في الشمس، ومعنى هذا أنه لم يشيد بيته ليعمر طويلا، فإذا كان المصري قد بنى بيته هكذا، فكيف يبني قبره من الأحجار الجيرية المقاومة؟ وكيف ينفق في سبيل تشييده مثل هذه النفقات الباهظة؟

السر في ذلك أن قدماء المصريين كانوا يعتقدون أن الإنسان بموته ينتقل إلى عالم آخر، يحيا فيه الحياة الآخرة، ولكنهم كانوا يعتقدون أن الروح التي أطلقوا عليها لفظ (كا) لا يمكن أن تعود إلى جسد صاحبها إلا إذا كان سليما لم يصبه شيء من التلف، وهذا جعلهم يهتمون بالتحنيط فيحولون جثة الميت بذلك إلى ما يسمى (المومياء) ثم توضع المومياء في كفن متين جميل بقدر ما تسمح به ظروف الميت، ثم تدفن أخيرا في غرفة تحت الأرض.

وبزيادة الثروة ورغبة الناس في بناء قبورهم وهم على قيد الحياة كانت تبنى المقابر على شكل مصاطب كبيرة فوق سطح الأرض، وإلى ناحية

الشمال منها فتحة توصل إلى زلاقة منحدرة متصلة بغرفة الميت، فإذا مات صاحب القبر دفنوه وأوصدوا المدخل بكتلة من الحجر وغطوا عليه الرمال.

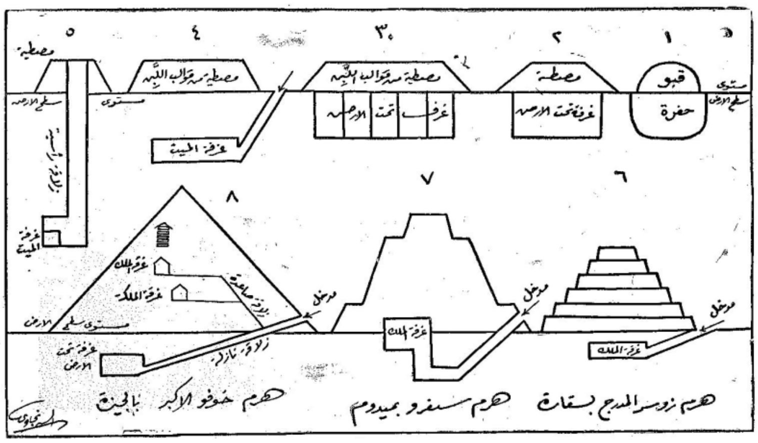
والأغرب من هذا كله هو اعتقادهم بأن الميت حين يبعث في قبره يحتاج إلى ما كان يرغب فيه وهو على قيد الحياة الأولى، فكانوا إذا حنطوا الجسد ودفنوه أحاطوا بصنوف المآكل والمشارب والحلي والملابس وكل ما يحبه من متاع.

وقد مرت قبور قدماء المصريين بأطوار مختلفة فكانت المقبرة قبل التاريخ حفرة تحت سطح الأرض توضع فيها الجثة ويقام عليها قبو يدل على مكانها، ثم ارتقت في ذلك العهد فرصفت حوائطها وأرضها بقوالب من اللبن المجفف في الشمس وبنى عليها قبو من الخشب يجلس فيه أهل الميت لتقديم القرابين والهدايا.

وفي عهد الأسرتين الأولى والثانية بني القبو الخارجي من قوالب اللبن على شكل مصطبة وقسمت المقبرة السفلى إلى حجرات يوضع فيها متاع الميت، ومن امثله ذلك مقابر أبيدوس.

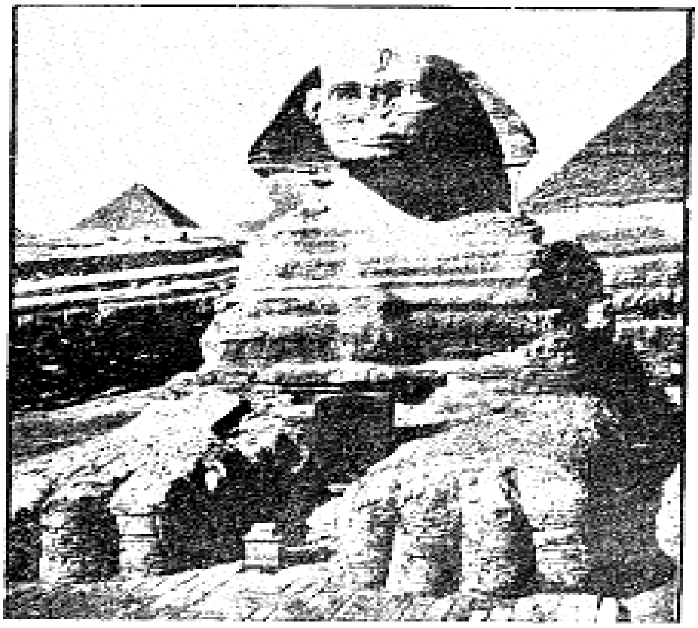
وفي عهد الأسرة الثالثة حدث تغيير عظيم، فقد بني الملك "زوسر" هرمه المدرج بسقارة، واستخدم الحجار الحجرية بدل قوالب اللبن فكانت هذه خطوة واسعة في سبيل تقدم فن البناء، يضاف إلى هذا أنه نقل مكان الدفن من أبيدوس إلى سقارة.

وكان هرما "سنفرو" في ميدوم ودهشور خطوة أخرى في سبيل تدرج المقبرة، ولذا اعتبرت الأسرة الثالثة بقبورها العظيمة ممهدة للرقي الفني العظيم في عهد الأسرة الرابعة.



"تدرج المقبرة حتى الأسرة الرابعة"

أما عهد الأسرة الرابعة فقد انتقلت فيه المقابر إلى شكل أهرام ضخمة طليت جدرانها من الخارج فأصبحت مصقولة ملساء كأنها قطعة واحدة، وهذا هو أقصى ما وصل إليه رقي المقبرة. ويسمي المؤرخون الفترة الممتدة من الأسرة الثالثة إلى الأسرة السادسة عصر بناة الأهرام.



"تمثال الإله رع"

المعروف بتمثال أبي الهول بعد أن أزيحت الرمال عن قاعدته

الفصل الخامس

الأسرتان الرابعة والخامسة

مؤسس الأسرة الرابعة هو الملك "خوفو" باني هرم الجيزة الأكبر الذي يعتبر من عجائب الدنيا السبع[1] روى "هيرودوت" أن "خوفو" استخدم في بنائه مائة ألف عامل كانوا يعملون وقت الفيضان أي ثلاثة أشهر في السنة ثم يستبدلون بغيرهم، وقال إنهم جهزوا أحجاره ومعداته في عشر سنوات، ثم أقاموه في عشرين سنة أخرى، والهوم مقام على مساحة من الأرض تبلغ ١٢ فدانا. وكان ارتفاعه وقت بناءه ١٤٥ مترا ثم تهدمت قمته العليا فأصبح ارتفاعه الآن ١٣٧ مترا، وهو مشيد من الأحجار الضخمة التي لا يقل وزن الواحد منها عن طنين ونصف طن، وقد احتاج البناء إلى أكثر من ٢٣٠٠٠٠٠ حجرا.

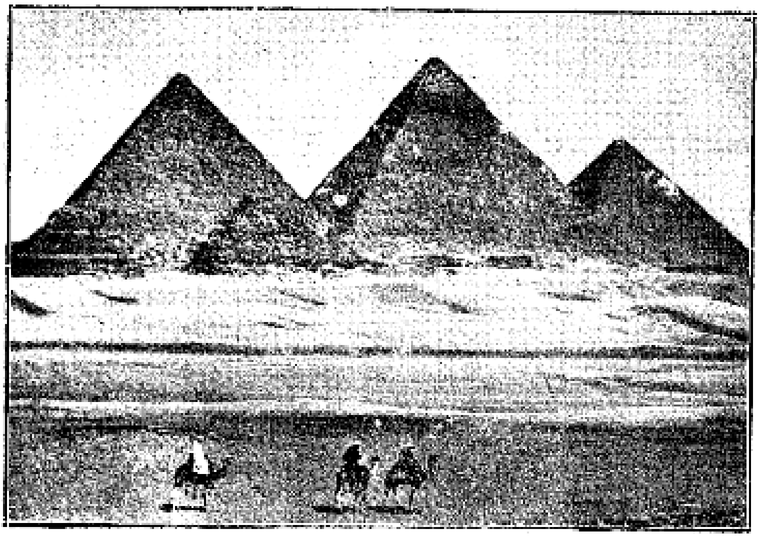
وفي داخل الهرم حجرة وجد فيها تابوت الملك فارغا، ولا يعرف بالضبط متى سرقت الجثة وبقية محتويات الحجرة، وفوق غرفة الملك خمس حجرات أخرى مفرغة من البناء كي تخفف الضغط عن غرفة الملك، وهناك غرفة الملكة وكثير من السراديب والزلاقات وبئر يبلغ عمقها ٦٢ مترا.

---

[1] عجائب الدنيا السبع هي:

أهرام الجيزة، نصـر لابرنت، منارة الإسـكندرية، تمثال الإله ديانا، سـور الصـين العظيم، تمثال كبير الآلهة (زوس) المصنوع من الذهب، الحدائق المعلقة في بابل.

وكان إلى جوار الهرم معبد كبير لا تزال أنقاضه باقية، ولم يبق من التماثيل التي كانت تزين ذلك المعبد شيء، وكل ما يحفظ لنا ملامح ذلك الملك العظيم تمثال صغير من العاج عثر عليه في أبيدوس.



"منظر عام لأهرام الجيزة"

وبنى "خفرع" بن "خوفو" الهرم الأوسط بالجيزة وارتفاعه ١٣٧ مترا وهو أقل ضخامة من هرم والده. وإلى جانب الهرم تمثال أبي الهول الذي يبلغ طوله ٤٦ مترا وارتفاعه ٢٠ مترا. وهو يمثل أسدا رابضا له رأس إنسان[٢].

---

[٢] كتبت جريدة الأهرام في عددها الصادر بتاريخ السبت ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٣٦ عن مراسلها في الأرجنتين خبرا غريبا مؤداه أن المسيو (بنيامين بوس) من علماء الرياضة في بلاده الأرجنتين يقول إن طول أنف تمثال أبي الهول في الجيزة كان مقياسا لوحدة طولية، وهو يقول أنه درس الأهرام وأبا الهول

ولقد ظل ذلك التمثال الهائل لغزا لا يحل ولا يعرف المؤرخون ما يدل عليه حتى شهر نوفمبر ١٩٣٦ إذ كشف العالم الأثري الكبير الدكتور سليم بك حسن وهو ينقب في منطقة الأهرام عن لوحة تذكارية كبيرة من الحجر الجيري ترجع إلى عهد "امنحتب الثاني" من ملوك الأسرة الثامنة عشرة، طولها أربعة أمتار وعرضها متران ونصف متر، عليها كتابة تتألف من ٢٧ سطرا كلها واضحة جلية، يقول فيها الملك امنحتب الثاني إنه كتبها تذكارا لزيارته أهرام أجداده، وزيارة تمثال الإله الأكبر "رع" أله الشمس المشرقة، ولم يكن معروفا إلى الآن أين تمثال رع، ولكن وجد على هذه اللوحة رسم يمثل الملك امنحتب أمام تمثال أبي الهول يقدم إليه شراب الإله، مما يدل دلالة قاطعة على أن تمثال أبي الهول إنما صنع رمزا للإله رع الذي كان معبود البلاد كلها في عهد الأسرة الرابعة، ونحن نرجح هنا أن ذلك التمثال قد حفر أيام الأسرة الرابعة لما كان عليه الإله رع من الشأن العظيم في ذلك الوقت، حتى أن بعض الملوك كانوا يقرنون أسماءهم باسمه مثل خفرع ومنقرع.

في مصر وأنه يعلن الآن أنه أكتشف فيها نظاما تاما لمقاييس الجغرافيا وعلم هيئة الأرض ومساحتها، ويقول الأستاذ بنيامين أن الذين بنوا الأهرام استطاعوا (تربيع الدائرة) أي استطاعوا المستحيل، وأنه كانت لديهم معادلات للمسائل الرياضية الأخرى قبل فيثاغورس وأرشميدس بزمن طويل، وسيعود الأستاذ بنيامين إلى مصر قريبا ثم يطوف فيما بعد عواصم أوروبا ليعلن ما يعتقد أنه براهين على وسائل مدهشة تحدد بالضبط نصف قطر الكرة الأرضية ومتوسط المسافة بين الشمس والأرض، ويقول الأستاذ بنيامين فوق ما تقدم إن هذه المعادلات المصرية قد درسها مهندسون ممتازون، وهذا الكشف الخطير دليل على أن بناة الأهرام كانت لديهم معلومات رياضية لا يزال يجهلها العلم الحديث حتى اليوم.

ولخفرع تمثال ضخم من البازلت نقل من المعبد المجاور لأبي الهول وحفظ في متحف القاهرة، وأهم ما يلفت النظر في معبد أبي الهول مواضع التماثيل الثلاثة والعشرين التي كانت تزين المعبد والتي لم يبق منها إلا التمثال الذي أشرنا إليه.

ومن أهم آثار الأسرة الرابعة قبر كشف عنه الدكتور سليم بك حسن ومساعدوه في شهر مارس سنة **١٩٣٦**، ترتكز أهميته على أنه أول قبر من قبور هذه الأسرة كشف عنه قبل أن تمتد إليه أيدي اللصوص، ولم يعثر على كتابة أو نقش يحمل أسم صاحبة القبر، ولكن وجوده في المنطقة المحيطة بهرم الملك خفرع بين قبرين من قبور أولاده يدل على أنه بنى لإحدى بناته، وعثر داخل القبر على تابوت من الحجر الجيري عليه غطاء ثقيل، وقد وضعت فوق الغطاء وسادة جميلة دقيقة الصنع من المرمر، وتجاه التابوت رأس منحوت من الحجر يرشد الروح إلى مكان الجثة، وعثر على هيكل عظمي لثور كبير لثور قربانا، وعثر في الجهة الشرقية من غرفة التابوت على أربع عشرة إناء من الفخار، ثم وجد في الجهة القبلية منها قطعتان من حجر الصوان المصقول وثلاث وعشرون إناء من النحاس.

أما التابوت فطوله ثلاثة أمتار وعرضه متر وربع متر، وهو منحوت من الحجر الجيري الذي تتكون منه هضبة الأهرام، ومن الصدف الجميلة أن الدكتور سليم بك وجد أن تابوت الأميرة لم يفض بعد، فرفع غطاءه ولكنه وجده مملوء بالطين الذي جلبه السيل إلى هذه المنطقة العميقة، وبذل الدكتور

جهدا شاقا في سبيل إزالة الطين طبقة بعد أخرى حتى بدت له أخيرا جثة الأميرة متماسكة العظام مستلقية على ظهرها.

وفي أصابع اليد اليسرى للأميرة وجدت أصابع ذهبية على مثال أصابع القفاز، وحول وسطها حزام عريض على مثال الحزم التي يستعملها النساء اليوم، ولكنه مصنوع من النحاس المحوط بصفائح كثيفة من الذهب، أما الساقان فيحيط بهما خلخلان من الذهب الخالص، وإلى جانب القدمين خف مصنوع من صفائح الذهب.

ويعد الكشف عن هذه المقبرة فتحا مبينا ونصرا عزيزا في مضمار التنقيب، إذ أنه يلقي على تاريخ الأسرة الرابعة وحضاراتها ضوء قويا، لأن كل المقابر التي كشفنا عنها من عهد هذه الأسرة وجدت مسروقة خالية من محتوياتها، ولعل السبب في بقاء هذه المقبرة سليمة لم تمتد إليها يد اللصوص أنها في مكان عميق وأن الرمال طغت عليها بعد أن دفنت صاحبتها بقليل، وأن أحد أتباع صاحبة المقبرة دفن في قبر عند مدخل مقبرتها فانصرف الذهن عن وجود مقبرة خلف هذا القبر الصغير.

وبنى "منقرع" بن "خفرع" هرم الجيزة الأصغر الذي يبلغ ارتفاعه ٦٢ مترا، ولكنه لم يتنه فأتمته الملكة "نيتو كريس" من الأسرة السادسة، وقد وجدت جثة "منقرع" داخل هرمه ونقلت إلى دار الآثار في لندن.

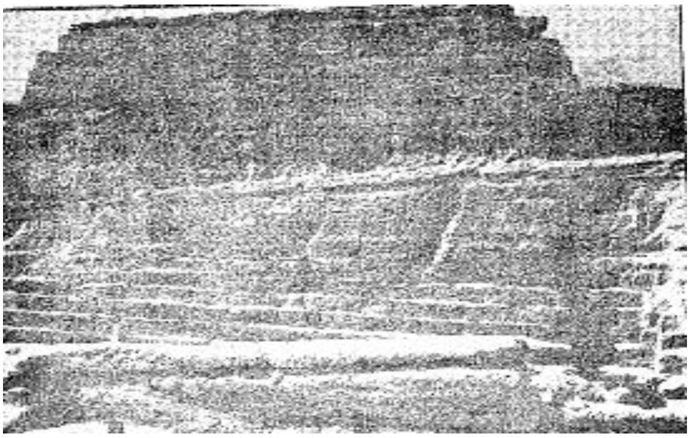
وفي فبراير سنة ١٩٣٢ كشف الأستاذ (سليم حسن) الهرم الرابع الذي يرجع تاريخه إلى أواخر الأسرة الرابعة، وهو يقع شرق الهرم الثالث

وعلى بعد ٢٥٠ مترا جنوب الهرم الأكبر في التلال الواقعة بينه وبين أبي الهول، وتبلغ مساحة قاعدته نحو ثلاثة آلاف متر مربع، أقامته الملكة (خنت كاوس) ملكة القطرين، وهي أول ملكة مصرية حملت لقب الملكية في الدولة القديمة.

وهذه الأهرام الضخمة لا شك أكبر شاهد على عظمة الملوك وقوتهم وسيطرتهم على حكام الأقاليم الذين قدموا لهم ذلك العدد العظيم من الصناع للاشتغال في أهرامهم، ثم إن نظرة واحدة إلى ما تستلزمه هذه الأبنية الهائلة من النفقات يجعلنا نستخلص أن خزانة الحكومة كانت ملأي بالأموال كما أن فحص الأهرام من الناحية الفنية يدل على أن قدماء المصرين نبغوا في هندسة العمارة والنقش والتصوير وصناعة التماثيل.

أما كون هذه الأهرام قبورا فهي من غير شك أعظم قبور بعد كشف الرمال عنه كما يرى من الجهة الشرقية، وهو يمتاز عن الأهرام الأخرى بأن القسم الأسفل منه نحت من الصخر وجعل على شكل مدرج، ووجدت وراء مدخله حجرة فسيحة منحوتة في الصخر مساحتها ١٢٠ مترا مربعا فيها أحجار كثيرة من الجرانيت، وإلى الجانب الغربي من الحجرة سرداب منحدر يؤدي إلى غرفتين أخريين.

شهدها العالم، قبور ملوك كانوا يعتقدون أنهم من نسل الآلهة وأنهم خلفاؤهم في حكم الأرض، ملوك أقاموا هذه الأبنية العظيمة لتكون مثوى أجسادهم ومتاع أرواحهم، كل هذا يرجع تاريخه إلى أكثر من خمسين قرنا.



"الهرم الرابع"

زادت أهمية الاله "رع" منذ الأسرة الرابعة فقد كان ملوكها يقرنون أسماءهم باسم ذلك الاله مثل خفرع ومنقرع وهذا معناه أن كهنة "رع" كانوا لا شك يتدخلون في الشئون السياسية ويحاولون التقليل من سلطان الملوك، وهذا مكن أولئك الكهنة من إسقاط الأسرة الرابعة وتأسيس الأسرة الخامسة.

ولما كان ملوك هذه الأسرة من الكهنة فقد كان جل اهتمامهم موجها للأمور الدينية فظهرت في عهدهم نهضة في الآداب الدينية لم يسبق لها مثيل.ولكن انصرافهم عن السياسة أدى إلى تقوى حكام الأقاليم فبعد أن كان الملك يعينهم ويعزلهم اكتسبوا لأنفسهم حقا جديدا هو وراثة الحكم.

وفي أواخر شهر مايو سنة **١٩٣٦** وفق العالم الأثري الكبير الدكتور سليم بك حسن إلى اكتشاف مصطبة لأحد كبار الكهان يدعى (نخت كاو)

من عهد الملك (سحو رع) ثاني ملوك الأسرة الخامسة، والعجيب في أمر هذه المقبرة أنها وجدت في منطقة قبور الأسرة الرابعة، لأن المعروف أن ملوك الأسرة الخامسة أقاموا قبورهم في أبي صير وسقارة، قد جرت العادة أن يدفن الأمراء وكبار الكهان والموظفين والحاشية حول مولاهم الملك، فكيف شذ (نخت كاو) ودفن بعيدا عن قبر مولاه، ومصطبة (نخت كاو) مبنية في الحجار الجيرية الضخمة وينفتح مدخلها إلى جهة الشرق، ويفضي المدخل إلى بهو ذي عمد منحوتة في الحجر الجيري.

وفي الطرف الجنوبي الغربي من هذا البهو مدخل يفضي إلى حجرة وجدت جميع حوائطها منقوشة برسوم مختلفة للحياة اليومية، بعضها يمثل الرجل مع زوجته وأمامهما صنوف المآكل والمشارب يستمعون إلى المنشدين والعازفين، وبعضها يمثله في أوقات عمله الجدي يستعرض رجاله وأعوانه وهم يقودون العجول والثيران، ولعل أعجب ما في هذا كله أن رجاله كانوا يقودون في نهاية ذلك القطيع ضبعا، ولقد عرف عن قدماء المصريين – في وقت ما – أنهم كانوا يستأنسون الضبع ويأكلون لحمه.

أما حجرة الدفن الحقيقية التي يحوي تابوت (نخت كاو) فقد بحث عنها الدكتور سليم بك في المكان المجاور للبهو والحجرة التي أسلفنا وصفها، ولكنه عثر على بئر محفورة خلف باب وهمي، وظل الأستاذ يعمل في تفريغ هذه البئر حتى بلغ عمقها تسعة أمتار وهنا انثنت البئر إلى حجرة صغيرة منحوتة في الصخر وامتلأت بتابوت استقطع من الصخر أيضا، ورفع المنقب غطاء

التابوت فشاهد من تحته عجبا شاهد هيكلا عظيما كاملا بلى ما حوله وكاد البلي يأخذ بأطرافه أيضا وذلك الهيكل يغمره الذهب من قمة الرأس إلى أخمص القدم، فحول الرأس بقايا لفافة كانت تطوق رأس الميت، وقد صنعت من أوراق الذهب التي تناثرت في التابوت، وحول العنق بقايا عقد من الزبرجد، وطاف بوسط الرجل حزام من النحاس مغطى بطبقة سميكة من الذهب، وبدت من بين أضلاع الرجل صفائح ذهبية رقيقة هشة، لعلها كانت تحيط بجسمه جميعا ثم تغلغلت فيه بعد أن بلى البدن وتقلص الهيكل العظمي، وتمددت إلى جانب الميت عصا مصنوعة من الذهب الخالص، ووجدت في غرفة الدفن آنية من الفخار والنحاس والمرمر وكثير من التحف الأخرى[٣].

ولم تكن طريقة التحية عند قدماء المصريين معروفة بالضبط قبل الكشف عن هذه المصطبة، ولكن وجدت على الحائط الشرقي للحجرة التي

[٣] من الحقائق التاريخية التي اكتشفها أحد علماء الصين الباحثين أن طوفانا غمر العالم القديم، وقد عثر في كل أنحاء العالم على آثار تؤيد حدوث هذا الطوفان، ولم يعرف تاريخ حدوثه إلى الآن، ولكن استطاع الدكتور سليم بك حسن على ضوء النتائج التي وصل إليها من التنقيب في هذا العام أن يحدد تاريخ حدوث هذا الطوفان، فقد لاحظ أن بعض المقابر التي كشفها مغمورة بالطمي مما يدل على أن السيل غمرها وقت حدوث ذلك الطوفان العام، وإلى جانب هذه المقابر وجد الدكتور مقابر أخرى لم يصل إليها السيل، ولاحظ أن مقابر الأسرة الرابعة هي وحدها التي غمرها الطوفان وأن مقابر الأسرة الخامسة – برغم مجاورتها لها – قد سلمت منه، ومن ثم استنتج أن الطوفان العالمي حدث في عهد الأسرة الرابعة، أي منذ ٢٢٧٠ سنة قبل الميلاد، وهذه حقيقة تاريخية ستقابلها الأوساط العلمية بكثير من الاهتمام.

أشرنا إليها رسوم تجلي عن طريقة التحية المصرية القديمة، فصاحب المقبرة واقف وأمامه رجلان من خدمه يقودان بعض الماشية، فإذا ما اقتربا منه نجد كلا منهما قد وضع يده اليسرى على كتفه الأيمن دلالة على التحية ويده اليمنى ممسكة بمقود الماشية، وهذا الرسم من النماذج النادرة في جميع المقابر التي تم كشفها.

وأهم آثار الأسرة الخامسة بسقارة هرم (أوناس) آخر ملوكها ورغم أنه أقل في ضخامته من أهرام الأسرة الرابعة فإنه يمتاز عنها بألوان بديعة ونقوش زاهية من الداخل، وعلى حوائطه كتابات يسميها المؤرخون (متون الأهرام) هي أقدم الكتابات الدينية في العالم إذ يرجع تأليفها إلى ما قبل حادث التوحيد، وتتضمن أساطير رواها كهنة (رع) إله هيلوبوليس وأدعية وطلاسم تحفظ جثة الميت وتقيها الشرور، وقد جمعت هذه الكتابات وضمت إليها أدعية أخرى وسميت في مجموعها "كتاب الموتى" ومن أعظم آثار هذه الأسرة معابد "أبي صير" بين الجيزة وسقارة وهي لا تزال حافظة لطلاوتها. وتمتاز بأرضها المرصوفة بالبازلت وبوجود كثير من أعمدة الجرانيت المحبب فيها، أما قبر "تي" أحد الأشراف الأغنياء وقبر "بتاح حتب" أحد أفراد الأسرة المالكة فيمثلان أقصى ما وصل إليه تقدم التصوير والحفر في الدولة القديمة، وهما أهم مصادر تاريخ الأسرة الخامسة.

وعثر المنقبون قرب طيبة على ملف من أوراق البردي يشمل ١٨ صفحة كتبت عليها نصائح الأديب الحكيم "بتاح حتب" التي وجهها لابنه،

وكلها تدور حول آداب السلوك ومعاملة الأصدقاء والزوجة والحكام والمرؤوسين، وتعد من غير شك أهم القطع الخالدة في أدب المصريين القدماء، وقد جاء فيها ما يأتي:

"كن سيدا في بيتك وأحب امرأتك حبا خالصا، أعطها كفايتها من الطعام واللباس واشتر لها العطر واجعلها سعيدة ما دمت حيا، فإن المرأة مرآة لزوجها ينعكس فيها ما يبذله في سبيل سعادتها، لا تكن خشنا في بيتك فاللين يحرك قلب المرأة والغلظة تنفرها."

وفي خلال سنة ١٩٣١ أزيحت الرمال عن بعض مقابر الأسرة الخامسة بالجيزة أهمها مقبرة (وب أم نفرت) مدير القصر الملكي الذي تزوج الأميرة (مرسى عنخ) ووجد لهذه الأميرة خمسة تماثيل جميلة أعينها مصنوعة من الحجر الأبيض داخل إطار من النحاس وهي من أرقى ما أبدعت يد الفنان المصري.

وكشف أيضا بالجيزة عن مقبرة (نيم عات رع) كبير المغنين في بلاط الملك (نيو سرع) رابع ملوك الأسرة الخامسة، ووجدت حجرة جنائزية صغيرة لأخت هذا المغني المسماة (نفرس رس) وهذه الحجرة منقوشة بالألوان الزاهية التي لا تزال حافظة لرونقها، وكانت هذه السيدة من الحرم الملكي ورئيسة راقصات الملك، وقد وصفت بأنها "الجميلة أمام الملك كل يوم والمسلية لقلبه في كل مكان".

وخلاصة القول أن الأدب والفن قد بلغا مبلغا عظيما في عهد الأسرتين الرابعة والخامسة، ولكن تقوى الأمراء في عهد الأسرة الخامسة كان ممهدا للتفكك السياسي في الفترة التالية التي يطلق عليها المؤرخون الأقطاع.

الفصل السادس

حضارة الدولة القديمة

إن الباحث في تاريخ الدولة القديمة لا شك يؤمن بأن ملوكها كانوا على درجة عظيمة من القوة والثراء، وأنهم كانوا مسيطرين تماما على حكام الأقاليم وكان الملك هو رأس الدولة الذي يعين الموظفين ويعزلهم ويولي حكام الأقاليم ويسأل الجميع عن كل ما يتعلق بشئون وظائفهم.وأكبر الموظفين رئيس وزراء الملك، وهو المنفذ للقوانين والمشرف على الإدارة والأعمال العامة والرئيس الأعلى للقضاة والمدير للديوان الملكي، والحقيقة أنه كان أعظم شخص في الدولة بعد الملك، ولكنه يفقد الصفة المقدسة التي أمتاز بها شخص فرعون، وهذا جعل المصريين يطلقون عليه (الرجل) تمييزا له عن فرعون الذي أطلقوا عليه (الرب).

وكان قضاة الحكومة على درجة عظيمة من الاحترام، يساعدهم في عملهم كثير من رجال القانون، وكان المصريون يطلقون على القاضي في عهد الدولة القديمة (وازن الكلمات).

وكان يصرف شئون المالية (أمناء المال) وهم من حملة الأختام الملكية ويعتبرون من كبار موظفي الدولة، وأمتاز بيت المال بأنه كان يطلى دائما باللون الأبيض، وكان جباه الحكومة منذ الأسرة الثالثة ينتشرون في الأقاليم

لجمع الضرائب ويعودون إلى العاصمة ومعهم الماشية والحاصلات الأخرى، ولما قوى شأن أمراء الأقاليم أصبحوا مسئولين وحدهم عن جباية الضرائب.

أما أعمال الكتابة فكان يقوم بها الناسخون والكتبة الكثيرون في دواوين الحكومة.

وعثر المنقبون على رسوم كثيرة على حيطان المعابد والقبور من عهد الدولة القديمة استدلوا منها على أن المجتمع المصري كان ينقسم إلى ثلاث طبقات:

(١) الطبقة العامة وتتألف من الأحرار الذين يشتغلون بالزراعة أو الصناعة، ثم العبيد الذين يعملون في فلاحة الأرض، وكلا الفريقين لا يملك شيئا من الأرض.

(٢) طبقة أصحاب الأرض.

(٣) طبقة الأشراف وتتكون من فرعون وأمراء بيته وكبار الموظفين في بلاطه وحكومته كالوزراء والقضاة وأمناء المال.

وكان عدد كبير من الأهالي يعمل في حفر الترع وتنظيم مياه الفيضان وقطع الأحجار وجلب المعادن، ولكن الصناعة الرئيسية هي الزراعة، ولم يكن الفلاح يملك الأرض التي يزرعها، ولكنه يزرعها ليقدم الجزء الأكبر من المحصول لسيده المالك، وعلى هذا لم يكن في مصر أيام الدولة القديمة ملاك صغار يفلحون أرضا يستطيعون التصرف فيها.

وكان بيت الفلاح ساذجا حقيرا، يهجره طوال النهار ولا يأوي إليه إلا في ليالي الشتاء، ولم يكن فيه من الأثاث غير القدر الذي يطبخ فيه طعامه وبعض الآنية التي يخزن فيها حاجياته، وكانت زوجته تساعده في عمله اليومي وتقاسمه العناء في الحقل في ساعات النهار، وبالاختصار فقد كان الفلاح المصري في عهد الدولة القديمة يشبه الفلاح المصري اليوم، يعمل طول يومه، ثم يأتي المساء فيجتمع الفلاحون المتعبون حول القصاص يقص عليهم حكايات الآلهة والأبطال.

ولم يكن يهتم الفلاح في عهد الدولة القديمة بشؤون الحكومة، فكثيرا ما كان يسقط فرعون ويتولى فرعون جديد، وكثيرا ما كانت تحدث التغيرات السياسية الخطيرة والفلاح لا يعلم عن هذه الأمور شيئا، بل ويرى أن البحث فيها عبء ليس لمثله أن يتحمله.

وتركزت حياة الناس في هذه الفترة على الدين والحياة الآخرة، وعظم شأن (رع) إله هليوبوليس و(فتاح) إله منف، وبقيت الآلهة المحلية متمتعة بسلطانها القديم في كثير من أنحاء البلاد وتنافس الملوك في إقامة المعابد الجديدة لهم، ونشأت الكهانة وأصبحت صناعة ممتازة لا يعرف عامة الشعب أسرارها، ولما قوى شأن الكهنة نصب الملك نفسه رئيسا لهم، وتدخل أولئك الكهنة أخيرا في شئون الحكم واستطاعوا تأسيس الأسرة الخامسة.

ونبغ المصريون في عهد الدولة القديمة في النسج وصناعة الخزف والأثاث والحلي والورق ودبغ الجلود، أما مهارتهم في الهندسة العملية والبناء

ونحت التماثيل فلا تزال مثار الدهشة والأعجاب وموضع اهتمام الفنانين في القرن العشرين، وها هي الأهرام العظيمة وتماثيل الإله رع وحتب ونفرت وشيخ البلد والكاتب المتربع وغيرها تمثل أعظم المفاخر الفنية للدولة القديمة.

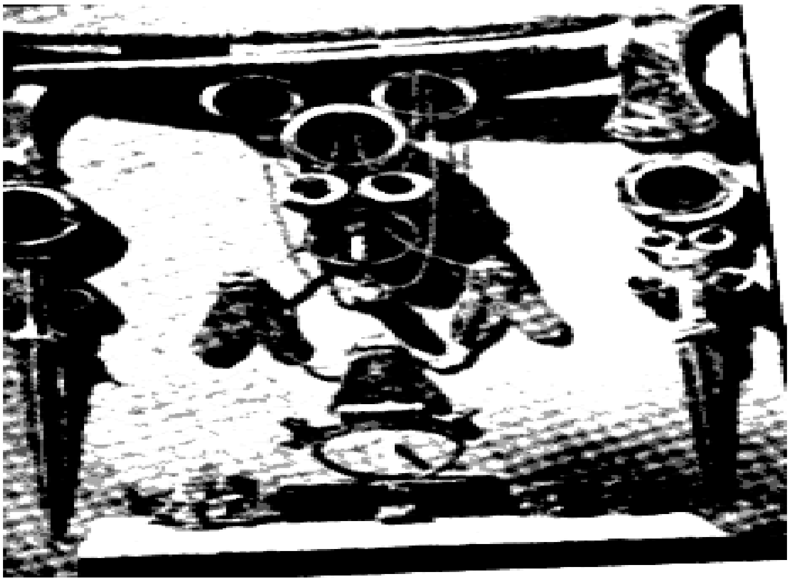
الفصل السابع

الإقطاع

لما ضعف الملوك في أواخر الأسرة الخامسة أصبح لحكام الأقاليم حق وراثة الأرض التي يحكمونها، وبدأ كل أمير يحيط نفسه بجيش وحاشية يشبهان ما لفرعون الكبير، ثم أصبح الأمراء يدفنون في مقاطعاتهم بعد أن كانت مقابرهم تحيط بمقبرة الملك، ولم يستطع الملوك مقاومة ذلك التغيير لضعفهم بل استعانوا بالأمراء على تنفيذ سياستهم واستمالوهم بتقديم الهدايا وبأقطاعهم أرضا من أملاكهم الخاصة، ولذلك يسمي المؤرخون تلك الفترة التي ظهر فيها ذلك التفكك السياسي (عهد الإقطاع)، ويبدأ من أواخر الأسرة الخامسة وينتهي بدخول الهكسوس مصر في الأسرة الثالثة عشرة.

واستطاع ملوك الأسرة السادسة أن يحافظوا على كيان الملكية، واستعانوا بالأمراء على بسط سيادتهم على بلاد النوبة وبلاد فينيقية وبدو الصحراء وبلاد بنت، ولكن كانت أواخر أيام هذه الأسرة مظلمة ضعفت فيها الملكية وقوى نفوذ الأمراء لدرجة مكنتهم من إسقاط الأسرة السادسة وبسقوطها ضاعت أهمية مدينة منف وانتهى عهد الدولة القديمة[1]

[1] (١) الدولة القديمة من الأسرة الأولى إلى ختام السادسة (٣٠٠٠ – ٢٥٠٠ ق. م)
(٢) الدولة الوسطى من الأسرة السابعة إلى السابعة عشرة (٢٥٠٠ – ١٥٨٠ ق. م)
(٣) الدولة الحديثة من الأسرة الثامنة عشرة إلى الحادية والثلاثين (١٥٨٠ – ٣٢٢ ق. م)



"مجموعة من حلي الأسرة الثانية عشر"

وبانقضاء أيام الأسرة السادسة عمت الفوضى وساء الحال وقام النزاع بين الأمراء لزوال هيبة الملكية، وبالاختصار عادت مصر إلى ما كانت عليه قبل التوحيد من التفكك والانقسام اللذين داما من الأسرة السابعة إلى الأسرة العاشرة.

وسط ذلك الظلام وهذه الفوضى نهض أمراء طيبة وأسسوا الأسرة الحادية عشرة وجعلوا طيبة مقرا لحكمهم وشيدوا بها قبورهم فبدأت تزداد أهمية هذه المدينة التاريخية العظيمة.وأسس الأسرة الثانية عشرة الملك "امنحتب الأول" الذي استطاع أن يخضع أمراء الأقاليم بالهدايا والإقطاعات، ويعتبر حكمه بدء العهد الإقطاعي المنظم وعودة نفوذ

الملكية.وقد رأى "امنمحعت" أن طيبة لا تصلح لحكم القطرين فنقل العاصمة إلى اللشت وبنى لنفسه هرما وعبدا بها.

ويؤثر عن عهده أنه كان فترة طمأنينة ورخاء، فقد أحدث عدة إصلاحات زراعية واهتم بتوزيع مياه الري بالعدل، ثم دانت له بلاد النوبة الشمالية وعاد رسله منها يحملون الذهب والحاصلات الأخرى.

وحكم بعده "اسر تسن الأول" وكان له معبد كبير في هليوبوليس لم يبق من آثاره إلا المسلة المعروفة التي لا تزال قائمة هناك.

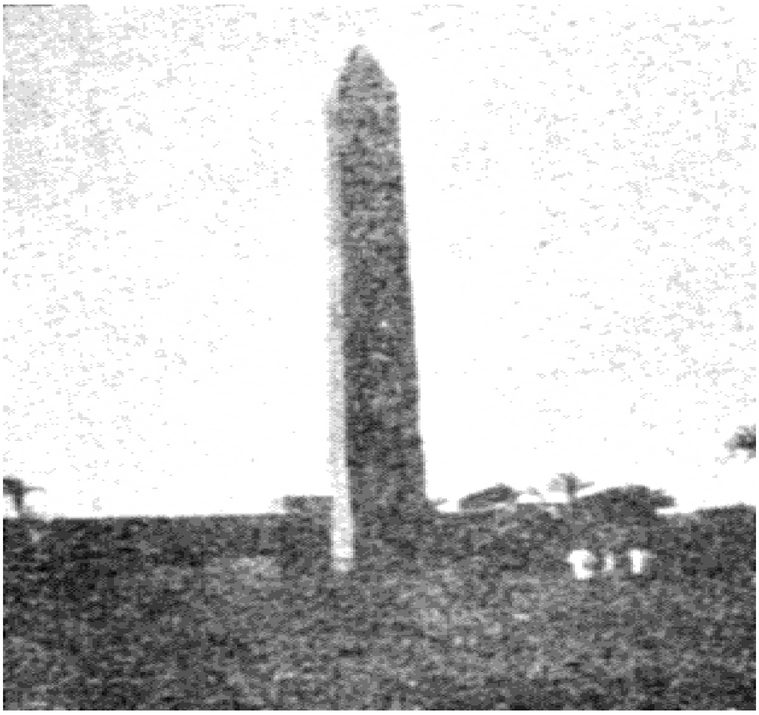
ومن أهم ملوك هذه الأسرة "اسر تسن الثالث" أو "سيزوستريس" الذي بسط سيادته على بعض أجزاء سوريا ووصل بحدود مصر في بلاد النوبة إلى الشلال الثني حيث أقام هناك قلعتي (سمنة وقمة) تم حفر ترعة توصل النيل بالبحر الأحمر وبنى لنفسه هرما وعبدا في دهشور.



"رأس تمثال أمنحت الثالث وهو محفوظ في متحف القاهرة"

ويعتبر "امنمحعت الثالث) أعظم ملوك هذه الأسرة. ويمتاز عهده بعدة إصلاحات زراعية عمرانية، فقد أقام سدا على جزء من منخفض الفيوم – المسمى بحيرة موريس – ليرفع منسوب الماء فيها ويوزعه على الترع للانتفاع به زمن التحاريق، وهذا ساعد على تقدم الزراعة والملاحة في الدلتا وتجفيف منطقة كبيرة من الأرض كانت تغمرها الأحراش والمستنقعات، وسرعان ما نشأت مكان هذه الأحراش مدينة الفيوم، ولا بد أن هذه المنطقة كانت قديما من أجمل بقاع مصر، لأنها تشرف على البحيرة ويهب عليها نسيم منها وأهوية نقية من الصحراء، ثم أنشأ مقياسا للنيل عند (سمنة) ونظم استخراج النحاس من سينا.

وبنى "امنمحعت" قبره على شاطئ البحيرة وبنى هرمه في هوارة وإلى جانبه أقام معبدا عظيما هو الذي وصفه "هيرودوت" وأسماه (قصر لابرنت) أو (قصر التيه) لأن الذي يدخله يضل فيه لكثرة حجراته والتواء ممراته الكثيرة، وقال "هيرودوت" أيضا إنه فاق في ضخامته أهرام الجيزة وإنه كان يحتوي على اثنى عشر بهوا نصفها يواجه الشمال ونصفها يواجه الجنوب، وبه طرقات وغرف مصنوعة من الحجر الأبيض الجميل تزينها تماثيل وتحف بديعة الصنع، وقال أيضا إن اللابرنت يحتوي على ثلاثة آلاف حجرة نصفها تحت الأرض ونصفها فوق الأرض.



"مسلة هيلوبوليس"

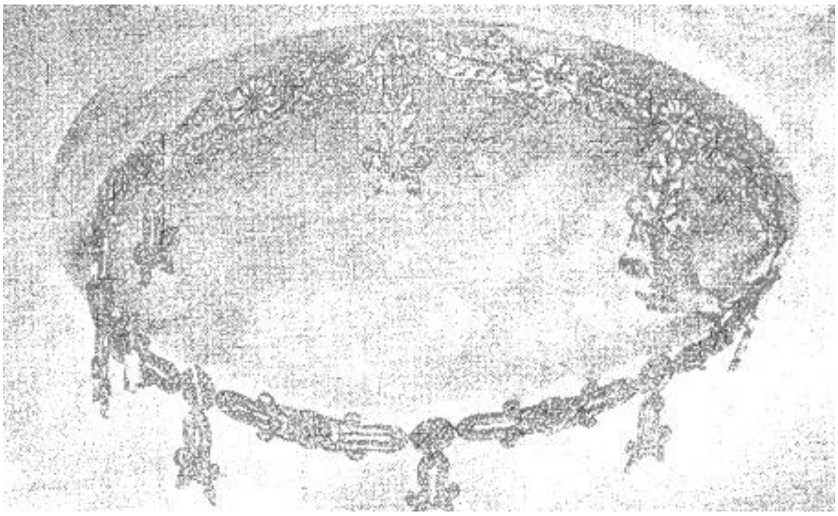
وهي أقدم مسلات مصر، ولا تزال في المكان الذي أقيمت فيه من عهد الأسرة الثانية عشرة، وهي منحوتة من الجرانيت الوردي من محاجر أسوان وعليها نقوش هيروغليفية تحمل اسم الملك "اسرتسن الأول"، ولم يبق من هذا المعبد العظيم إلا أحجار قليلة مبعثرة لا تدل على شيء مما جاء في وصف "هيرودوت" ولذا نشك في صحة ذلك الوصف.

يعتبر عهد الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ – ١٧٨٨ ق. م) العصر الذهبي في تاريخ الفنون والآداب والرفاهية والمحافظة على فوق سهول سوريا

وتلالها إلى ضفتي الفرات، وحكموا السودان كمديرية مصرية، وتجولت سفنهم التجارية في شرق البحر الأبيض المتوسط، وتمت على أيديهم مشروعات الري التي زادت في رفاهية الأهالي وملأت خزانة الدولة بالأموال، وهذا ساعد على تجديد وبناء معظم معابد مصر القديمة.

وتختلف أهرام هذه الأسرة عن أهرام الدولة القديمة لصغر حجمها ولأن المدخل في كل منها عبارة عن فتحة على الأرض بعيدة عن الهرم، وكانت العناية كلها موجهة إلى تزين المعابد وقبور العظماء.

وقد عثر المنقبون في أهرام دهشور على صندوقين يحتويان على حلي وعقود تعتبر من أعظم كنوز العالم القديم، فإذا اعتبرنا تماثيل شيخ البلد ورع حتب ونفرت أقصى ما وصل إليه الرقي الفني في عهد الدولة القديمة، كانت الحلي التي عثر عليها بأهرام دهشور فخر الدولة الوسطى وشاهد تقدمها العظيم في الصناعات الدقيقة، وكل هذه الحلي محفوظة في متحف القاهرة، ومن بين آثار ذلك العهد مجموعة عظيمة من أختام الجعارين.



تاج مرصع للأميرة "خنومت" من الأسرة الثانية عشرة، عثر عليه في دهشور، وهو محفوظ في متحف القاهرة

ومن أهم آداب الدولة الوسطى قصة الأمير "سانحات" أحد أفراد الأسرة المالكة الذي هاجر عند موت "امنمحعت الأول" إلى سوريا وعاش هناك زمنا طويلا ثم عاد إلى مصر في أخريات أيامه ووصف بلاد سوريا وصفا يعبر صورة صادقة لأحوالها في ذلك العصر، وتتلخص أهمية رحلته في أن وصفه لسوريا يدل على أنها كانت في عهد الدولة الوسطى (حوالي ٢٠٠٠ ق. م) متأخرة في حضارتها عن مصر.

والقصة مكتوبة بأسلوب طلي وبها معلومات تدل على عناية قدماء المصريين بدراسة أحوال البلاد الأجنبية التي تحيط بهم، كما أن الرسائل البليغة التي كتبها "سانحات" لفرعون والردود التي بعث بها إليه فرعون ليسمح

له بالعودة إلى مصر كلها مكتوبة بقوة في التعبير وسلاسة في الألفاظ تدل على مبلغ عظيم من التمدن، ويقول "سانحات" ما يأتي في ختام القصة:

"وأخيرا عدت إلى الوطن العزيز مصر، وأقيم لي هرم بين أهرامها، وأمر جلالة الملك فصنع لي تمثال مطعم بالذهب، كل هذه أشياء لا يمكن أن تعمل لرجل حقير الشأن، وإني أعلن إخلاصي وولائي لجلالته إلى آخر لحظة من حياتي".

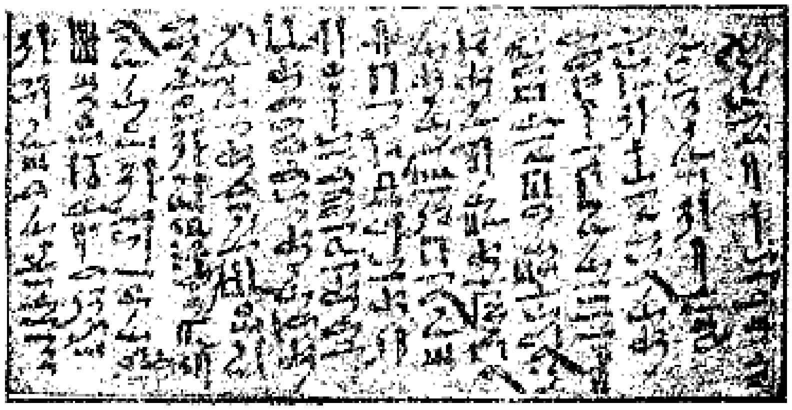
ومن أشهر الآداب أيضا قصة البحري الغريق التي يقول في إحدى صحائفها:

"هلك من كانوا على ظهر السفينة ولم ينج منهم أحدا، ثم قذفت بي موجة من أمواج البحر الأعظم إلى جزيرة نائية، وقضيت وحدي ثلاثة أيام لا رفيق لي غير قلبي، وكنت أقضي الليل في الأدغال حتى يحتويني نور الصباح فأزحف واملأ فمي التين والعنب والخضر اللذيذة"[٢]

أما بقية القصة فخلاصتها أن ثعبانا هائلا ذا لحية طويلة قبض على البحار وحجزه عنده ثلاثة أشهر أكرم وفادته خلالها، وأخيرا أعاده إلى مصر يحمل الكنوز والخيرات، وذلك الثعبان هو ملك هذه الجزيرة النائية في البحر الأحمر عند مخل المحيط الهندي.

[٢] هذه القطعة هي ترجمة ما جاء في الصحيفة التي ترى صورتها هنا من قصة البحري الغريق.

أما من حيث الدين فإن "رِع" أله هليوبوليس (عين شمس) كان يعبد في كل أنحاء مصر عبادة عامة، ولكن ظهور (طيبة) جعل لمعبودها "أمون" أهمية كبيرة، ومنذ ذلك الوقت بدأ المصريون يعبدون الإلهين مجتمعين ويطلقون عليهما "أمون رع".



صحيفة من قصة البحري الغريق التي كان يقرأها الأولاد والبنات في مصر منذ أربعة آلاف سنة، وقد ترجمنا محتوياتها في صحيفتي (٤٧، ٤٨) وهي هنا ثلث الجم الأصلي

الفصل الثامن

الهكسوس

ظلت مصر بعد الأسرة الثانية عشرة أعواما في هدوء ورفاهية، ثم سادت الفوضى في الداخل وانتابتها كارثة غزو من الخارج، ويظهر أن الملوك الثلاثة الأول من الأسرة الثالثة عشرة حكموا القطرين، وأن عاصمتهم كانت الفيوم، ولكن سرعان ما تفككت البلاد وعادت سيرتها الأولى قبل (مينا) ويطلق المؤرخون على عهد الفوضى التي سادت أيام الأسرة الثالثة عشرة بالعصر المظلم الثاني.

وكل ما يعرف عن حال مصر في ذلك العصر أن غزاها قوم أجانب أطلق عليهم مانيثون "الهكسوس"، وهؤلاء انتهزوا فرصة الانحلال والضعف والفوضى الداخلية، وأنهم عند دخولهم مصر انتشروا في الدلتا وأنشأوا بلدا جديدا جعلوه مقر حكمهم يدعى "أفاريس" في شرق الدلتا، وأن حكمهم انتهى بقيام أسرة قوية في الجنوب على رأس حركة وطنية عاصفة تمكنت من طردهم.

ولا يستطيع مؤرخ أن يدلي برأي قاطع عن أصلهم، وقد تعرض لهذا الموضوع مؤرخ يهودي يدعى (يوسيفوس) فقال إن (هيك) معناها أمير وأن (سوس) معناها راعي ومن ثم سمى الهكسوس (ملوك الرعاة)، ولكن هذا القول لا يعتمد عليه، والحقيقة أن معنى الكلمة في اللغة المصرية (حاكم البلاد الأجنبية)، وأن الهكسوس كانت لهم إمبراطورية واسعة تشمل سوريا

وشمال مصر وجزء من آسيا الصغرى وأرض الجزيرة بدليل العثور على اسم "خيان" أحد ملوكهم على بعض الآثار في كريد وبغداد مما يدل على امتداد إمبراطورتيهم إلى هذه الجهات أو على الأقل انتشار نفوذ الملك "خيان" فيها.

أما أصلهم فلا يزال موضوعا غامضا حتى اليوم، ولكن أكثر الآراء على أنهم خليط من الفينيقيين والعرب وسكان آسيا الصغرى، وأن لغتهم بها عناصر من لغة بابل وفينيقيا، وأنهم كانوا يلبسون الملابس المزركشة ويستخدمون العجلات الحربية التي تجرها الخيل.

وقد حكموا مصر من الأسرة الرابعة عشرة إلى السابعة عشرة، ولكنهم لم يحكموا البلاد بأنفسهم في أول الأمر، بل تركوا الحكم في أيدي ملوك المصريين كانوا أشبه بولاة لهم خلال الأسرتين الرابعة عشرة والخامسة عشرة، وكانت عاصمتهم (اكسويس) في شمال الدلتا، أما الأسرتان السادسة عشرة والسابعة عشرة فقد حكم فيهما ملوك من الهكسوس أنفسهم.

ويقال أن "أو كن رع" الهكسوسي آخر ملوك الأسرة السادسة عشرة هو الذي حدثت في أيامه المجاعة الشهيرة التي نجت البلاد من هولها وزيره الحكيم يوسف الصديق.

وكان الهكسوس في أول أمرهم يهدمون معابد المصريين ويبالغون في ظلمهم، ولكنهم لم يلبثوا أن عبدوا آلهتهم وصاهروهم ولما ضعف الهكسوس وماتت فيهم الروح الحربية بعد عيشة الخمول والترف التي عاشوها بمصر قام

أمراء طيبة في الجنوب بحركة وطنية قوية للحصول على استقلال مصر وطرد الهكسوس منها، فتمكن "أحمس" قائد الحركة بعد حرب طويلة دامت أكثر من خمسين عاما من الانتصار عليهم وإخراجهم من مصر عن طريق تانيس وسينا، ثم محا المصريون آثارهم وبدأ تاريخ مصر يدخل في طور جديد[١].

ولم تكن للهكسوس حضارة فنية تذكر، ولكنهم امتازوا بالتفوق في الفنون الحربية، فهم الذين علموا المصريين تقسيم الجيوش إلى فرق ووحدات واستخدام الخيل والعجلات الحربية والأسلحة الطويلة، وهذه كانت أكبر عون للمصريين في حرب الاستقلال التي انتصر فيها ضدهم.

وعثر المنقبون في تانيس على تماثيل من البازلت تعزي إلى عهدهم، ويميل بعض المؤرخين إلى أن عاصمة الهكسوس كانت (تانيس) للعثور على كثير من آثارهم بها، وعثر أيضا على تمثال ناقص للملك (خيان) في بوبسطة، ولكن لسوء الحظ لم نجد إلا النصف الأسفل من التمثال وعليه اسم الملك، وعثر أيضا على مجموعة من الجعارين والأختام في مصر وسوريا.

---

[١] روى المؤرخ (يوسيفوس) أن الهكسوس هم بنو إسرائيل الذين لم يطردوا من مصر كما يقرر المؤرخون المصريون، وإنما قادهم موسى إلى الأرض الموعود بها كما جاء في سفر الخروج في التوراة، والحقيقة أن طرد الهكسوس على يد أحمس لا علاقة له بخروج بني إسرائيل من مصر لأن ذلك الخروج كان في عهد الأسرة التاسعة عشرة.

الفصل التاسع

الدولة الحديثة (الإمبراطورية)

يعتبر طرد الهكسوس وتأسيس الأسرة الثامنة عشرة بدء عظمة مصر الحقيقية، فإن "أحمس" بعد أن تتبع الهكسوس حتى أجلاهم عن حدود مصر الشمالية الشرقية اعتبر مؤسسا للأسرة الثامنة عشرة وأعلن سيادته على القطرين وعلى جميع حكام الأقاليم، فكانت الملكية الجديدة قوية ترتكز على أساس الجيش الذي أجلى الهكسوس عن مصر.

ولما كان "أحمس" من أمراء طيبة فقد عظم شأنها وشأن معبودها "أمون" وأصبحت مقر الحكم، وكما أننا نذهب إلى الجيزة أو سقارة لنعرف شيئا عن حال مصر أيام الدولة القديمة، فإن نذهب إلى طيبة لنرى معبدي الكرنك والأقصر العظيمين ونعرف شيئا عن حضارة الدولة الحديثة.

ولما كان المصريون قد تعلموا فن الحرب عن الهكسوس وأخذوا عنهم استخدام العجلات والخيل وطاردوهم حتى حدود مصر فإن هذا جعل المصريين يثقون بأنفسهم ويعتقدون أنهم يستطيعون فتح بلاد جديدة وهكذا بدأ خلفاء "أحمس" سلسلة الفتوح العظيمة في آسيا وتمكنوا من إقامة إمبراطورية مصرية وصلت حدودها شرقا إلى الفرات.

ومن أقوى الملوك الذين حكموا بعد أحمس الملك تحتمس الأول، فقد تمكن من نشر سيادة مصر على السودان، ثم غزا جزءا كبيرا من سوريا وزحف شرقا حتى شاطئ الفرات، وهناك أقام عمودا تذكاريا يعين أقصى

توغله إلى ناحية الشمال الشرقي.ورغم اهتمامه بالحرب فقد كان محبا للمباني فزاد في معبد الكرنك وبنى لنفسه قبرا دفن فيه بوادي الملوك بطيبة الغربية.

وحدث بعده نزاع على العرش لا يزال موضوعه غامضا، ولكن الأستاذ "برستد" قال بفرض مؤدا أن حتشبسوت وتحتمس الثاني وتحتمس الثالث كلهم أبناء تحتمس الأول، وكان تحتمس الثاني ملكا ضعيفا تمكنت "حتشبسوت" من التغلب عليه، فحكمت البلاد وأشركت معها أخاها تحتمس الثالث وتزوجته وهو لا يزال غلاما وظلت تحكم وهو إلى جانبها ليس له من الأمر شيء حتى ماتت فحكم وحده من بعدها.

ولم تكن "حتشبسوت" تميل للحرب فصرفت مدة حكمها في البناء والعمارة فمن ذلك أن أقامت لنفسها معبد الدير البحري وأعلنت الشعب أنها ابنة الاله أمون، ثم زادت في معبد الكرنك وأرسلت حملة إلى بنت، لجلب الأشجار والأعشاب والذهب ولبان الذكر لمعبد أبيها أمون، وعلى حوائط معبد الدير البحري تاريخ "حتشبسوت" وصورة تمثل وصول السفن التي أرسلتها لبلاد بنت، وتمثل عودتها إلى مصر تحمل حاصلات هذه البلاد.

وزينت الملكة حديقة معبد الكرنك والطرق الموصلة إليه بالأشجار التي جلبتها من بلاد بنت ويظهر أن السفن عادت من بنت إلى طيبة عن طريق "ترعة سيزوستريس".

وبعد أن حكمت حتشبسوت ثلاثين عاما رغبت في تخليد ذكراها فأمرت بإقامة مسلتين هائلتين من الجرانيت في معبد الكرنك لا تزالان الآن

عند مدخل معبد الأسرة الثامنة عشرة، إحداهما قائمة والأخرى لا تزال أنقاضها باقية، ولما ماتت دفنت في وادي مثابر الملوك.

وبعد موتها حكم "تحتمس الثالث" وحده، وبدأت تظهر مواهبه الحربية وقوة شخصيته بزوال الكابوس الذي كان يغطي عليها، فقد كانت "حتشبسوت" لا تترك له من الأمر شيئا وكان في أيامها على حد تعبير أحد الكتاب صفرا على الشمال.

ومنذ حكم ذلك الملك العظيم وحده بدأ يعد العدة لمشروعات حربية هائلة خلدت ذكراه ووضعته في صف أعاظم القادة في التاريخ القديم[١].

واستطاع "تحتمس" أن يجعل عدة من مدن سورية مخازن للذخائر والمؤن، وأن يجعل معظم موانئ فينيقيا محطات لأسطوله الحربي، ودفع له أهل فلسطين الجزية، ثم إنه عين من المصريين حكاما على كثير من البلاد التي فتحها.

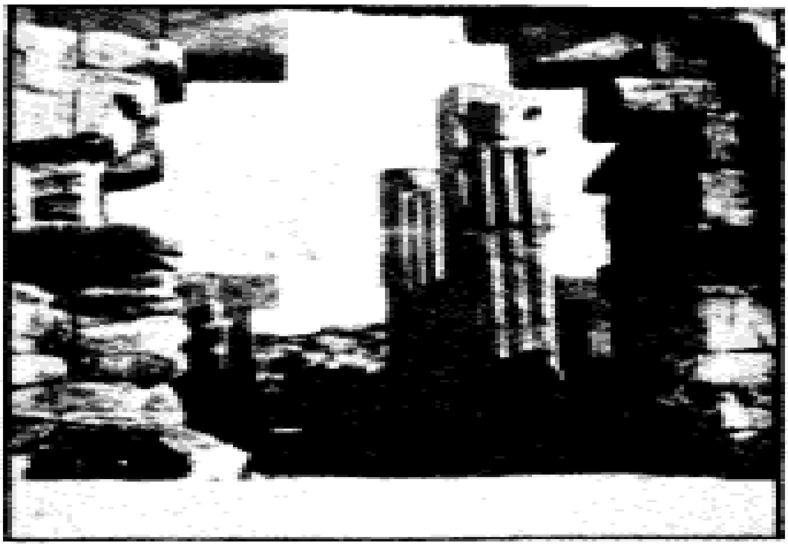
ففي الحملة الأولى هزم أمراء الشام الذي تجمعوا لقتاله بقيادة ملك قادش في (مجدو) وتم له الاستيلاء عليها، وكانت نتيجة ذلك النصر المبين

---

١ ليس أدل على قوة شخصية الملك تحتمس الثالث من المنشور الذي أذاعه على الشعب المصري عند توليته العرش وفيه يقول في كبرياء وعظمة.

(هذا مرسومي الملكي إليكم ينبئكم بأني قد تبوأت عرش "هو راس" الحي وأنه لا مماثل لي ولا شريك لي في الحكم إلا الأبد، أنا صاحب الجلالة ملك الأرضين أنا الملك المعظم ملك مصر العليا والسفلى آمركم أن تقوموا بتقديم القرابين إلى الآلهة وأن ترتلوا الأناشـــيد لها كي تبارك في مولاكم الملك وأن تقسموا أيمانكم من الآن باسم جلالتي المعظمة).

أن تقرب إليه ملوك آسيا وقدموا له الهدايا عند مداخل بلادهم في الحملة الثانية.



أعمدة زهور اللوتس والبردي أقامها تحتمس الثالث في معبد الكرنك لتمثيل القطرين

وفي الحملة الخامسة استولى على مدينة (أرواد) الحصينة، ثم تمكن في الحملة السادسة من محاصرة (قادش) برا وبحرا، ولم يتمكن من دخولها والاستيلاء عليها إلا في الحملة السابعة عشرة.

وبتوغله شمالا نحو الفرات التقى بأمه الميثاني الشديدة البأس، وكانت عاصمتها قرب إقليم حلب، والتقى كذلك بالحيثيين الذين بدأوا في ذلك الوقت يندفعون من آسيا الصغرى، فعبر "تحتمس" الفرات وهزم الميثاني

وتقدم نحو بابل وعقد مع ملكها صلحا مشرفا، ولم يستولى عليها لبعدها عن مصر.

وقاد حملة إلى السودان أوصل بها حدود مصر إلى الشلال الرابع، وهكذا وسعت إمبراطورته كل هذه البلاد الفسيحة.

وأهم أعماله السلمية بناء معبده الجنائزي على حافة الصحراء المطلة على طيبة ولكنه الآن قد تهدم تماما، وأهم أعماله الباقية الأجزاء التي بناها في معبد الكرنك والأعمدة الجرانيتية التي حلاها برسوم زهر اللوتس والبردي ليمثل القطرين، ثم إنه أقام لنفسه مسلات عديدة نقلت إحداها إلى القسطنطينية وثانية إلى روما وثالثة إلى لندن على ضفة التيمس ورابعة إلى حدائق سنترال بمدينة نيويورك.

وأعظم آثاره تمثال له في صباه حفر من الحجر الأسود عثر عليه ،ففي الحملة الأولى هزم أمراء الشام الذين تجمعوا لقتاله بقيادة ملك قادش في (مجدو) وتم له الاستيلاء عليها، وكانت نتيجة ذلك النصر المبين أن تقرب إليه ملوك آسيا وقدموا له الهدايا عندما دخل بلادهم في الحملة الثانية.

وفي الحملة الخامسة استولى على مدينة (أرواد) الحصينة، ثم تمكن في الحملة السادسة من محاصرة (قادش) برا وبحرا، ولم يتمكن من دخولها والاستيلاء عليها إلا في الحملة السابعة عشرة.

وبتوغله شمالا نحو الفرات التقى بأمة الميثاني الشديد البأس، وكانت عاصمتها قرب إقليم حلب، والتقى كذلك بالحيثيين الذين بدأوا في ذلك

الوقت يندفعون من آسيا الصغرى، فعبر "تحتمس" الفرات وهزم الميثاني وتقدم نحو بابل وعقد مع ملكها صلحا مشرفا، ولم يستولى عليها لبعدها عن مصر.

وقاد حملة إلى السودان أوصل بها حدود مصر إلى الشلال الرابع، وهكذا وسعت إمبراطورتيه كل هذه البلاد الفسيحة.

وأهم أعماله السلمية بناء معبده الجنائزي على حافة الصحراء المطلة على طيبة ولكنه الآن قد تهدم تماما، وأهم أعماله الباقية الأجزاء التي بناها في معبد الكرنك والأعمدة الجرانيتية التي حلاها برسوم زهر اللوتس والبردي ليمثل القطرين، ثم إنه أقام لنفسه مسلات عديدة نقلت إحداها إلى القسطنطينية وثانية إلى روما وثالثة إلى لندن على ضفة التيمس ورابعة إلى حدائق سنترال بمدينة نيويورك.

وأعظم آثاره تمثال له في صباه حفر من الحجر الأسود عثر عليه في الكرنك وهو محفوظ الآن بمتحف القاهرة.

وجملة القول أن "تحتمس" كان ملكا عظيما وبطلا محبوبا فقد ظل المصريون يقدسون اسمه مئات السنين بعد موته لدرجة أنهم عبدوه وقدموا له الهدايا والقرابين.

ووصلت مصر في عهد "امنحتب الثالث" إلى ذروة المجد والقوة، فقد عمل ذلك الملك على تقويتها ورفع شأنها بوساطة الإصلاح الداخلي والمعاهدات السلمية. وقد رأى أنه في حاجة إلى معبد جديد يعبد فيه شخصه

كما صنعت "حتشبسوت" من قبل، فبنى لنفسه معبد الأقصر الذي يعتبر فخر الدولة الحديثة وأقصى ما وصل إليه الرقي الفني في عهدها، وفي غرفة صغيرة بالمعبد تعرف بغرفة الميلاد نقش "امنحتب" قصة الميلاد السماوي، وخلاصتها أن الإله "أمون رع" رأى أم "امنحتب" فاستملحها وأحبها، وساعدته "إيزيس" على الاتصال بها فكانت النتيجة أن ولد "امنحتب الثالث" وهذه القصة كتبها الملك ليجعل نفسه ملكا شرعيا من سلالة الآلهة، ثم أنه زاد في معبد الكرنك ووصل المعبدين بطريق الكباش الشهير.

وبنى غرب طيبة معبدا لم يبق منه إلا التمثالان اللذان أطلق عليهما أيام الرومان "تمثالا ممنون" وبنى قرب ذلك المعبد قصر زينه ببركة صناعية كان يخرج إليها مع زوجته "تي" في قارب صغير للنزهة.

وبالاختصار فإن مصر في أيامه حافظت على أملاكها في سوريا وآسيا وامتلأت خزانتها بالأموال، وهذا شجع على نهضة في الفن تعتبر أقصى ما وصلت إليه الدولة الحديثة، وقد ازدهرت تجارة مصر في البحرين الأبيض والأحمر وجلبت خيرات آسيا ونفائسها إلى مصر وزادت الرفاهية وعم السلام.



رأس تمثال للملك تحتمس الثالث في صباه، وهو مصنوع من الحجر الأسود ومحفوظ في متحف القاهرة

ولكن في أواخر أيامه طمعت دولة الحيثيين في أملاك مصر وأغارت على سوريا من جهة الشمال، ثم أغار عليها من الجنوب بدو الصحراء، ومات "امنحتب" قبل أن يتمكن من صد غارات الأعداء.

وكانت البلاد بعد موته في حاجة إلى ملك قوي يقود الجيوش ليحمي حدودها ويحافظ على كيانها ويحتفظ بأملاكها، ولكن لسوء حظ مصر تولى بعده ابنه "امنحتب الرابع" وكان فيلسوفا كثير التعمق في الخيالات والتفكير

فيما وراء المادة، فترك سياسة الدولة وانصرف إلى الاشتغال بالفلسفة والدين.

وكان يرمي "امنحتب الرابع" خلال السنوات القليلة التي حكمها إلى شيء واحد هو (تحرير الدين) وإطلاقه من عبادة الأوثان والآلهة الكثيرة، والتخلص من نفوذ كهنة (أمون) الذين كانوا قد جمعوا مالا وعددوه، فأعلن أن أمون ورِع وكافة آلهة مصر أصنام صماء وأن هناك ربا عظيما له ما في السموات وما في الأرض، وأن ذلك الرب لا يصح أن نرمز له بأشياء من صنع الإنسان.

وأخيرا توصل الملك الفيلسوف إلى أن الشمس هي مبعث الحركة والحياة، وإلى أن الله هو المحرك لها والمحتجب وراءها فرمز له بقرص الشمس تتدلى منه أيد قابضة على مفاتيح الحياة، وسمى ذلك الإله (أتون) ومعناه روح الشمس، وأعلن لشعبه أنه لا يسمح أن يوجد دين آخر إلى جوار دين أتون، وجاوز هذا إلى بناء مدينة جديدة تكون مقرا لعبادته أسماها "اخيتاتون" أو "أفق أتون" موقعها الآن تل العمارنة، ثم محى اسم أمون من المعابد والنقوش القديمة وسمى نفسه "أخناتون" وعناه "مجد أتون" إلى غير هذا من التغييرات الكثيرة التي قصد بها تدعيم دينه الجديد.



تمثالا ممنون

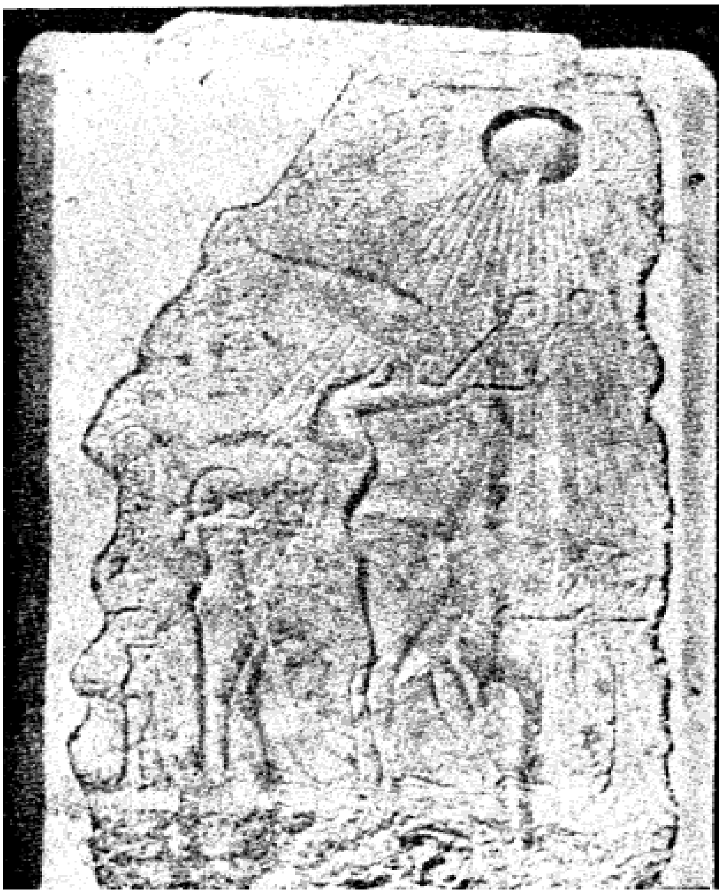
وانصرف "أخناتون" مدة حكمه إلى وضع الأناشيد لمعبوده الجديد، وكلها تدل على اعتقاد وثيق بوحدانية الخالق، فمن ذلك قوله يخاطب الإله أتون:—

"أيها الإله الأحد الذي لا شريك له إلى الأبد، لقد خلقت الأرض والناس والأنعام وخدك ... الخ".

وكان المفكرون من قادة الأمة ورجال السياسة والكهنة العظام مستائين لذلك التغيير، وخشى الجند والضباط أن تضيع أملاك مصر التي فتحوها بدمائهم، ولكن برغم ذلك الاستياء فقد كانت شخصية الملك مقدسة لا يمكن معارضتها، ولذا ظل الدين الجديد قائما مدة حياة أخناتون.

وكانت نتيجة انصراف الملك عن السياسة والحرب أن قامت الفتن في أملاك مصر الأسيوية وسلخت أجزاء كثيرة منها وعمت الفوضى وساء الحال.

وبموت أخناتون تولى عرش مصر زوج ابنته "توت عنخ أمون" وكان في أول الأمر على دين أتون ولكنه وجد نفسه وجها لوجه أمام عاصفة شديدة من الاستياء من جانب الكهنة والجند وعامة الشعب، فرأى أن الحكمة تقضي بإعادة الدين القديم، ثم إنه نقل مقر الحكم إلى طيبة بلد أمون، وبالغ هو وخلفاؤه في إرضاء كهنة أمون فبلغ نفوذهم السياسي منذ ذلك الوقت مبلغا عظيما.



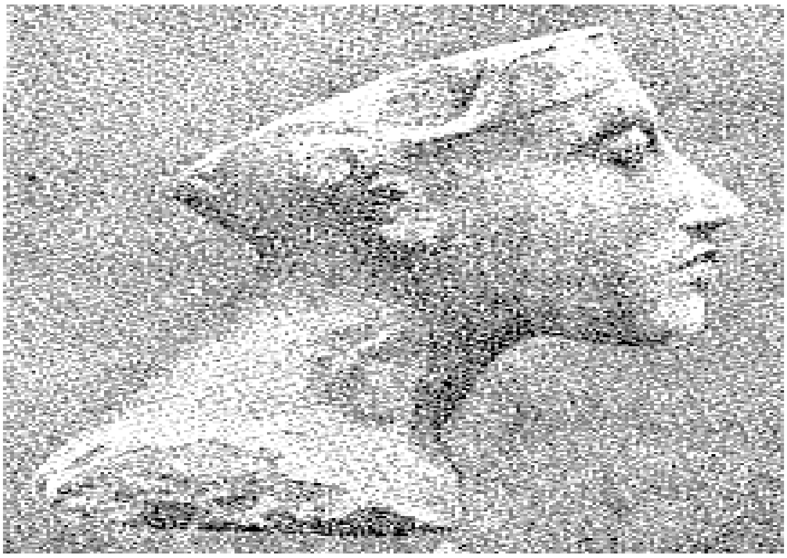
"أخناتون" وزوجته أمام معبودهما "أتون"

وبرغم أن "توت عنخ أمون" من الملوك الذين لا أثر لهم في الفتوح، فإن شهرته قد عظمت في السنوات الأخيرة لمناسبة العثور على قبره عام ١٩٢٢ على يد المنقب الشهير "لورد كرنار فون" ومساعده "المستر كارتر".

يقول بعض المؤرخين إن مؤسسها "حر محب" ويقول البعض إن مؤسسها "رمسيس الأول" الذي لا نعرف عنه إلا قليلا، والذي لابد وأن يكون العرش قد آل إليه عن طريق زوجته، وأهم آثاره "بهو الأعمدة" في معبد الكرنك ويعتبر من أهم ما خلفته الدولة الحديثة، وتولى رمسيس وهو مسن فأشرك معه ابنه "سيتي الأول".

وبدأ "سيتي الأول" حكمه بحملات موفقة إلى سوريا فأعاد ملك مصر فيها وأرجع الأجزاء التي سلخت أيام "أخناتون". ثم قوى البحرية وجعل بعض موانئ سوريا محطات للأسطول المصري.

ووجد "سيتي" نفسه في حاجة إلى الذهب فذهب بنفسه لكشف طريق الصحراء الموصل إلى النوبة وأمر بحفر الآبار ورسم الخرائط لتسهيل الرحلة في الصحراء، وقد عثر على إحدى هذه الخرائط مرسومة على ورق البردي أقدم خريطة في الوجود وهي محفوظة الآن في متحف تورين.



تمثال رأس أخناتون مصنوع من الحجر الجيري عثر عليه في تل العمارنة

وأهم آثار ذلك العصر معبد "سيتي الأول" الذي أقامه لعبادة الإله "أوز وريس" والذي خصص فيه غرفا لتخليد ذكرى ملوك مصر الأقدمين، فهناك نجد أسماءهم محفورة على حوائط المعبد، وتعتبر هذه النقوش والكتابات من أهم مصادر تاريخ مصر القديم.

إن نظرة واحدة إلى مومياء "رمسيس الثاني" التي عثر عليها في قبره تدل على أنه كان ملكا عظيم الشخصية، كما أن تماثيله التي تعتبر أضخم ما ترك قدماء المصريين تدل على أنه كان يميل إلى تخليد ذكراه بكل وسيلة ممكنة، وإذا نحن نظرنا إلى أعماله الحربية والإصلاحية نجد أنها تقل في قيمتها عن أعمال تحتمس الثالث وأحمس ومينا، ولكن شهرته تفوق شهرة جميع

ملوك مصر، ويرجع هذا إلى أنه كان ينقش اسمه على المعابد القائمة وينسبها لنفسه، بل جاوز هذا إلى محو أسماء الملوك السابقين وكتابة اسمه مكانها، ومن أجل آثاره الكثيرة أطلق عليه "رمسيس الأكبر".

وفوق هذا فقد أقام رمسيس مباني عظيمة نقش عليها أخباره، وانتصاراته، فقبره في "أبي سمبل" من أهم آثار مصر الفنية، ومعبده الجنائزي في طيبة المسمى "الرمسيوم" لا شك أعظم المعابد الكثيرة الممتدة على حافة الصحراء، ويظهر أن هذا راجع إلى أنه لا يزال حافظا لرونقه ولم يتهدم منه إلا القليل، ولأن عليه رسوما وكتابات تتضمن وصف الحروب بين رمسيس والحيثيين.



"الرمسيوم"

وأتم "رمسيس" بهو الأعمدة الذي لم يعيش أبوه "سيتي" ليتمه في معبد الكرنك، وبنى الردهة الأمامية لمعبد الأقصر، وله فوق هذا آثار كثيرة في الدلتا، لأن رمسيس وخلفاؤه فضلوا الإقامة في (تانيس) مدينة الهكسوس القديمة بينما كانت طيبة العاصمة الدينية للقطرين.

ويرجع السبب في اختيار "تانيس" مقرا للحكم إلى أن "رمسيس" كان يرغب في تأسيس إمبراطورية مصرية واسعة تضم الشام والبلاد الأسيوية الأخرى، لذا كانت تانيس أصلح للحكم لقربها من البلاد الأسيوية.

وقد صادف "رمسيس" في أحدى غزواته لسوريا حادثا خطيرا وصفه فيما بعد على حوائط الكرنك والأقصر والرمسيوم، ذلك الحادث هو وصف الحرب بين رمسيس وبعين "متيلا" ملك الحيثيين الذي يحالف مع أمراء الشام ضد فرعون مصر، وكانت بين الفريقين معركة قادش الشهيرة:

وتبدأ قصة هذه الحرب بأن أسر المصريون اثنين من بدو الصحراء كانا في الحقيقة جاسوسين أرسلهما "متيلا" ليوهما "رمسيس" بمعلومات كاذبة، فاخبراه أن أعداءه قد أخلوا قادش وتقهقروا نحو حلب وما كاد "رمسيس" يسمع هذا حتى انطلق بفرقة واحدة من جيشه؛ بل أكثر من هذا أنه ترك الفرقة وتقدم برجال حرسه الخاص معتقدا أنه لن يصادف عقبة في سبيله إلى أبواب قادش، ولكن الحيثيين انقضوا على فرقته وألجأوها إلى الفرار، وأحاطت عجلاتهم بالمدينة من كل ناحية لتمتع فرار فرعون.

في ذلك الموقف المروع ظهر رمسيس بمظهر البطولة الحقة، فبدل أن يسلم نفسه لعدوه فكر في الخلاص، ولم يجد منقذا إلا أن يكون جريئا سريع الحركة، وأخيرا صمم على الهجوم على ناحية ضعيفة من صفوف العدو، فاندفع بعربته بين جنود كان يقودهم ملك حلب الذي تقهقر إلى ناحية النهر، وتمكن "رمسيس" من حجز أعدائه هناك حتى وافاه جيشه، ولا يعتبر هذا انتصارا لمصر، ولكن نجت مصر وسلم فرعونها من هزيمة كانت محققة.

وبعد هذا قاد "رمسيس" حملات أخرى إلى سوريا، ولكن قوة الحيثيين كانت عظيمة لدرجة لم تمكنه من السيطرة على البلاد كلها.

وبموت "متيلا" عقد "رمسيس" معاهدة صداقة مع ملك الحيثيين الجديد "خيت أزار" نقشت شروطها على لوحة من الفضة وأرسلت إلى مصر ولا بد أن تكون قد كتبت نسخة أخرى في مصر وأرسلت إلى الحيثيين، ولم يعثر المنقبون على هاتين اللوحتين، ولكن نقش "رمسيس" صورة المعاهدة على حوائط معبده بطيبة، وظلت شروط هذه المعاهدة مرعية بقية أمام "رمسيس".

وبعد هذا بثلاثة عشر عاما زار "خبث أزار" مصر وتزوج رمسيس بإحدى بناته تدعيما لروابط الصداقة بين البلدين.

وأحسن تمثال لرمسيس محفوظ الآن في متحف تورين، ولكن متحف القاهرة حافل بآثاره وتماثيله، ويوجد في طريق سقارة من البدرشين تمثالان

هائلان أقامهما رمسيس على مدخل معبد شيده للإله "فتاح" وبينهما تمثال كبير لأبي الهول رفع من بين الرمال منذ سنوات قليلة.

وبعد أن حكم "رمسيس" ٦٧ عاما مات وهو في سن التسعين تاركا الملك لابنه الأمير "منفتاح" الذي ورث نشاط والده ومقدرته في الحكم، وكان لا يقل عنه حبا في الشهرة فمحا أسماء الملوك ونقش اسمه على المعابد والمباني القديمة.

وترتكز شهرة "منفتاح" على أنه الفرعون الذي خرج في أيامه بنو إسرائيل من مصر كما يقول الكثير من المؤرخين، ولكن هذا القول لا يصح الاعتماد عليه من الوجهة التاريخية، لأن مرجعنا في هذا الموضوع هو الكتب المقدسة، فمثلا التوراة والقرآن يقولان أن بني إسرائيل خرجوا من مصر وإن فرعون وجنوده غرقوا، ولكن من هو ذلك الفرعون؟ لم تبد الكتب المقدسة ذكرا لاسمه، وعلى هذا لا يصح التأكيد بأنه "منفتاح".

ولمنفتاح حملات كثيرة وجهها إلى سوريا لإخماد الثورات التي قام بها أمرأوها، كما أنه حارب اللوبيين الذين أغاروا على حدود مصر الغربية، وأهم ما يؤثر عن (منفتاح) أنه احتفظ بحدود مصر ولم يمكن جيرانها من غزوها، وقد نقش على آثاره أخبار انتصاراته على الأعداء.

أما من حيث الفنون فقد انحطت في عهده، ونسب الملك لنفسه لوحات وتماثيل ومعابد كان قد أقامها "امنحتب الثالث"، وبالاختصار بدأت البلاد في الانحطاط منذ انتهى حكم "منفتاح" ويعتبر "رمسيس الثالث"

مؤسسا للأسرة العشرين الطيبية وهو آخر فرعون عظيم، إذ حكم القطرين وحارب أمراء سوريا وأخضعهم لسلطانه وهزم اللوبيين في الغرب، وعلى حوائط قبره في وادي الملوك صور للأسرى الأجانب الذين انتصر عليهم، ووجدت في قبره مومياؤه ونقلت إلى متحف القاهرة.



"رأس تمثال للملك منفتاح محفوظة في متحف القاهرة"

وبلغت نفائس الكرنك والأراضي الموقوفة على كهنة أمون أقصاها في عهد رمسيس الثالث، لذا عظم نفوذه كهنة أمون وظل يزداد في عهد الملوك

الضعفاء الذين خلفوه حتى تمكن أولئك الكهنة من تأسيس الأسرة الحادية والعشرين.

الفصل العاشر

عهد الاضمحلال

تعتبر فتوح "رمسيس الثاني" أقصى ما وصل إليه اتساع الإمبراطورية المصرية، وتتلخص عوامل الضعف الذي لحق مصر بعد الأسرة التاسعة عشرة فيما يأتي:

(١) زيادة سلطان الكهنة الذين استولوا على أوقاف المعابد واستأثروا بجانب كبير من النفوذ السياسي.

(٢) أن الملوك الضعفاء واجهوا أمامهم مشكلة الدفاع عن حدود الإمبراطورية الواسعة فاستعانوا بالجنود المرتزقة من اللوبيين الذين كانوا فيما بعد خطرا على سلطانهم.

(٣) أن دولة الأشوريين كانت إذ ذاك آخذة في أسباب القوة وكانت تطمع في امتلاك مصر، وهكذا اجتمعت هذه العوامل وساعدت على هدم الإمبراطورية.

قلنا إن زيادة نفوذ كهنة أمون في عهد (رمسيس الثالث) وخلفائه أدى إلى تمكنهم من تأسيس الأسرة الحادية والعشرين والتي أسسها رئيسهم (حرحور) ومنذ ذلك الوقت جمع الملوك بين السلطتين الدينية والسياسية، ولكن يظهر أن ملوك الكهنة كانوا يحكمون الصعيد بينما كان يحكم الدلتا

ملوك من أمراء الشمال مقرهم (تانيس) ثم صاهر الكهنة أمراء الشمال وكان الجميع يدفنون في طيبة.

وكان اللوبيون قد عظم نفوذهم فتمكنوا من إسقاط ملوك الكهنة وأسسوا الأسرة الثانية والعشرين، ثم هرب ملوك الكهنة من وجههم يحملون كتبهم ونفائسهم التي كانت تملأ معابد (أمون رع) واستوطنوا بلاد النوبة حيث وجدوا الشعب الأثيوبي الهادئ المطيع فحكموه وعلموه دينهم وبلغ نفوذهم هناك مبلغا عظيما.

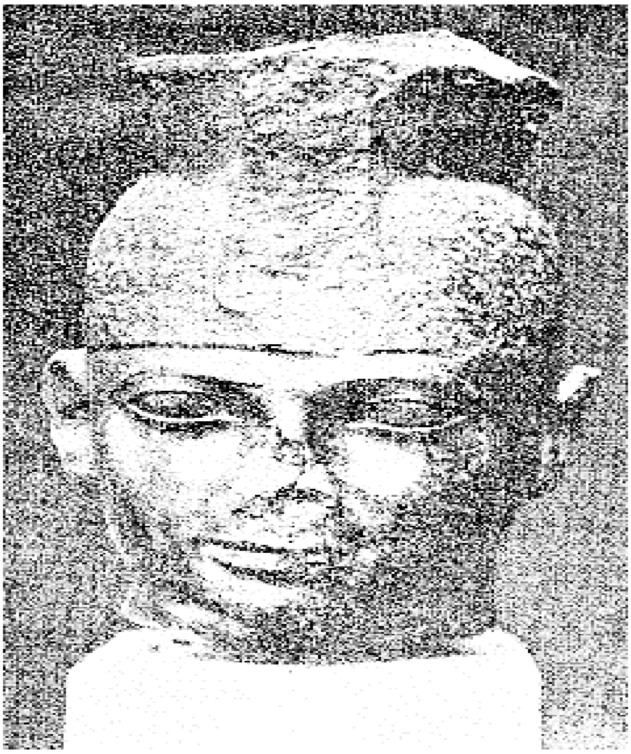
وأسس الأسرة الثانية والعشرين القائد اللوبي (شيشنق) أو (شيشاق)، وكانت عاصمته بوبسطة (قرب الزقازيق الحالية) حيث توجد إلى الآن بقايا معبد أقامه أحد ملوكهم (أسر كون) لأحد آلهتهم المسمى (سدهب – SedHeb) ورغم أنهم قضوا على ملوك الكهنة فإنهم كانوا يعبدون "أمون" ويحترمون تقاليد المصريين وعاداتهم.

ويؤثر عن "شيشنق" أنه بنى الردهة الأمامية في معبد الكرنك، وأنه غزا فلسطين وسلب مدينة "أورشليم" وحمل إلى مصر كنوز سليمان الذهبية، وأخبار هذه الحملة مدونة في التوراة ومنقوشة على حوائط معبد الكرنك، ولا تدل آثار ذلك العصر على شيء من التقدم الفني.

ولم يستطع الملوك اللوبيون حكم البلاد كلها فاستقل كثير منهم ومن أمراء الأقاليم وعادت الحال إلى التفكك السياسي القديم، وهذا مهد لدخول الاتيوبيين مصر من جهة الجنوب.

عظم نفوذ الكهنة في بلاد النوبة "أتيوبيا" وحكموها وأقاموا بها المعابد ونشروا المدنية المصرية فيها، ولما أن ضعفت مصر في أواخر أيام اللوبيين تمكن الأثيوبيون من تأسيس الأسرة الثالثة والعشرين وكانت عاصمتهم "نباتا" قرب الشلال الرابع.

ونصب هؤلاء الأتيوبيون أنفسهم حراسا على المدينة والتقاليد المصرية، فقد عظم شأن أمون في طيبة وازدهرت الفنون في عهدهم.



رأس تمثال (طهراقة) الملك الأثيوبي وهو محفوظ في متحف القاهرة

وفي السنوات الأخيرة عثر الدكتور "ريزنر – Reisner" الذي باشر التنقيب في السودان باسم متحف بوستون الأمريكي على آثار ملوكهم داخل أهرامهم، وقسمت الآثار التي عثر عليها بين متحفي بوستون والخرطوم ولم يكن لمتحف القاهرة منها نصيب.

وأعظم ملوكهم (بعنخي) الذي فتح مصر وأخمد بنفسه الثورات التي قامت في الدلتا وأخضع أمراء الأقاليم لسلطانه ثم زار معبد "رع" في هليوبوليس وقدم له الشكر على الانتصارات التي أحرزها.

ولما تولى طهراقة من بعده نقل العاصمة إلى تانيس كي يستطيع الدفاع عن حدود مصر الشمالية الشرقية ضد غارات الأشوريين الذين قويت شوكتهم إذ ذاك وطمعوا في امتلاك مصر.

وحارب طهراقة الأشوريين في معارك كثيرة بقيادة ملكهم "أسر حادون" ولكن كانت النتيجة انتصار الأشوريين واستيلاءهم على مصر عام (٦٧٢ ق. م) ولم يكن الأشوريين مثل اللوبيين أو التيوبيين يحترمون معبودات مصر وتقاليدهم ولكنهم كانوا أهل سلب وتدمير لا يطمعون في شيء أكثر من الغنيمة، وحكم "أسر حادون" القطرين وبلاد النوبة وأقام على مصر "نخاو" أمير سايس واليا من قلبه.

وظل أمراء مصر يترقبون الفرص لطرد الأشوريين حتى قام "ابسماتيك" بن "نخاو" وتمكن من طردهم وأسس بذلك الأسرة السادسة والعشرين، وبذلك دخلت مصر في دور نهوض جديد.

عصر النهضة (الأسرة السادسة والعشرون)

٩٤٥ – ٥٢٥ ق. م

بعد أن خلص (أبسماتيك) البلاد من الأشوريين أسس الأسرة السادسة والعشرين وجعل عاصمته (سايس) في الدلتا، وكان يستعين في ذلك كله بالجنود المرتزقين من الإغريق منتهزا فرصة اشتغال الأشوريين بمحاربة بابل، ولذا نجد نفوذ الإغريق يزداد في مصر منذ ذلك الحادث، ونجد عددا عظيما منهم يستوطن الدلتا، ثم إن تجارهم انتشروا في البلاد وتمتعوا بكثير من الامتيازات، وقد أقطع فرعون جنود الإغريق بلدين في الدلتا وجعل لتجارهم حيا في منف، وأخيرا سمح لهم فأنشأوا لأنفسهم بلدا جديدا يدعى "نقراطش" قرب الفرع الغربي للنيل.

وكانت نهضة مصر في عهد الأسرة السادسة والعشرين إحياء لحضارة أجدادهم القديمة، فقد عادت الكهانة سيرتها الأولى وتليت الصلوات والأدعية في معابد الأهرام التي هجرت مئات السنين، ثم أصلحت المعابد والمباني القديمة، وأقيمت أبنية أخرى على طراز آثار الدولة القديمة، وهكذا قلد "أبسماتيك" جده "خوفو" رغم أن أكثر من عشرين قرنا تفصل بينهما.

وليس معنى هذا أن النهضة كانت مصرية محصنة، فإن انتشار الإغريق في مصر واستخدام الجنود منهم صبغ النهضة بصبغة إغريقية، ذلك لأنها

قامت على أكتاف تجار الإغريق الذين علموا مصر فن التجارة والتجول في البحار وإنشاء المصانع الكبيرة، لذا نجد التجارة من أهم مميزات ذلك العصر.

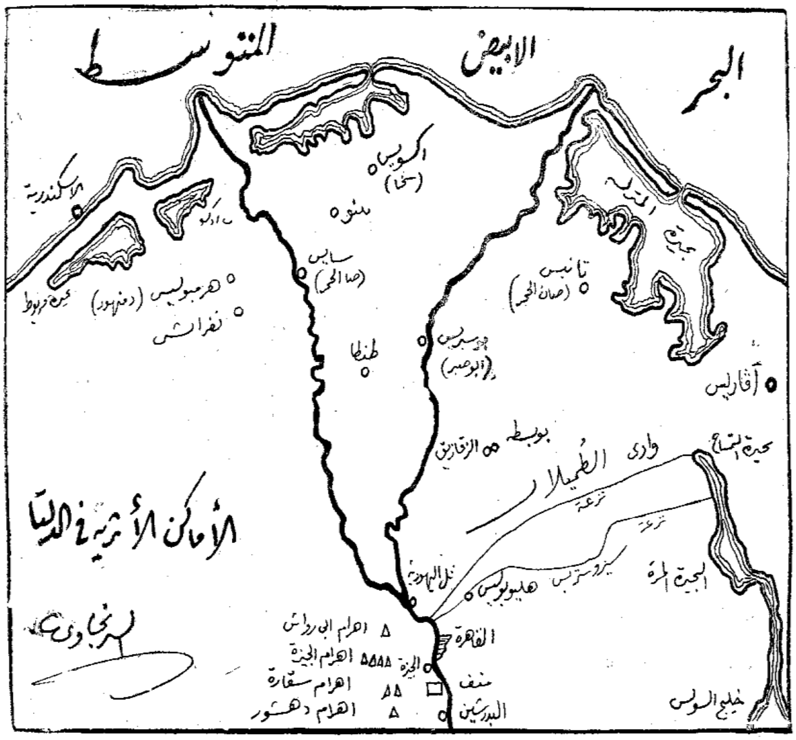
ومن أهم آثار عصر النهضة مجموعة من تماثيل البرنز لبعض الآلهة مثل أوز وريس وإيزيس وهوراس، ومجموعة من الحلي البديعة الدقيقة الصنع ورسائل مكتوبة بالخط الديموطيقي.

وكثير من أخبار هذه الأسرة مستمد من كتاب "هيرودوت" الذي زار مصر بعد أيام الأسرة السادسة والعشرين بقليل، وكتب عن هذه الفترة كتابة أثبت التنقيب أنها صحيحة كلها، وذلك رغم أن كتابته عن الدولة القديمة لا يصح الاعتماد عليها.

وكان "ابسماتيك الأول" الذي حكم أربعا وخمسين سنة ذا مواهب نادرة وقدرة عظيمة على الحكم، فهو الذي جلب مصر مركزا محترما بين جاراتها وصرف عدة سنوات في تقوية حكومتها المركزية وتجديد المعابد وتدعيم دين البلاد، وفي أخريات أيامه جهز حملة لفلسطين قادها ابنه "نخاو"

وتمكن "نخاو" من الاستيلاء على موانئ سوريا وتوغل شمالا حتى الفرات، وفي عودته فرض الجزية على أورشليم.

وسرعان ما سقطت الدولة الأشورية باستيلاء البابليين على عاصمتها "نينوي" بقيادة ملكهم "نابوبو لاسار" والد "نابوخد ناصر" وأرسل "نخاو" جيشا جديدا لقتالهم ولكنهم هزموه هزيمة شنيعة عند قرقميش.



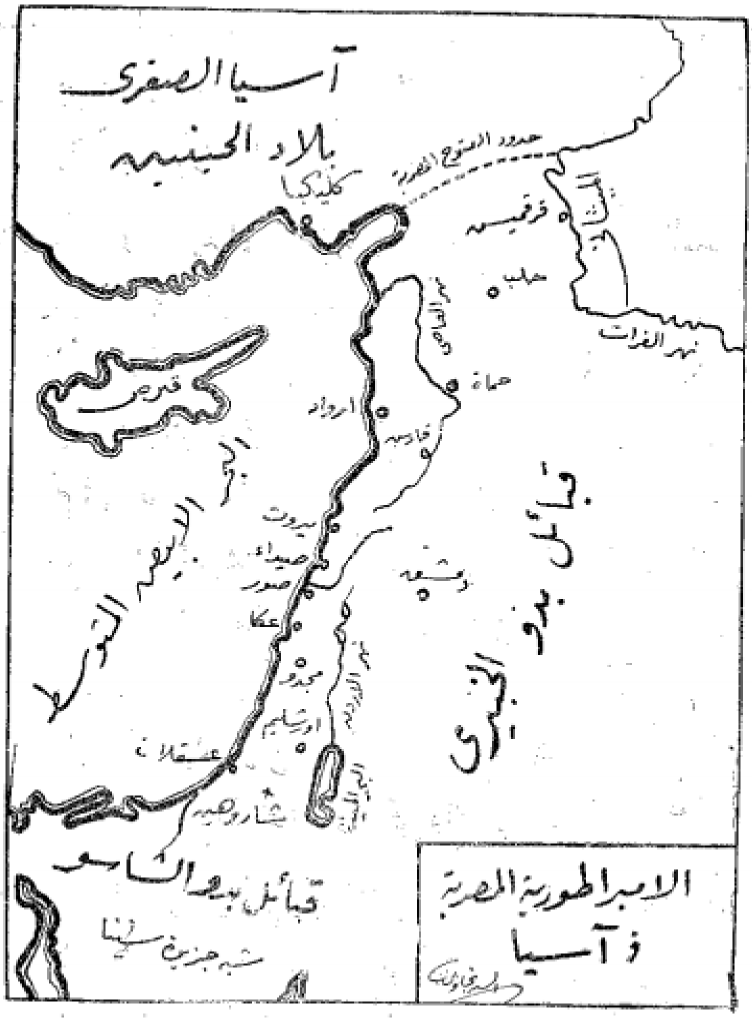
ورغم هذا فقد بنى نخاو أسطولا بحريا بقيادة ضباط من الإغريق والفينيقيين واهتم بالتجارة وشرع في توصيل البحر الأبيض بالبحر الأحمر عن طريق النيل، ولكنه لم يتم المشروع لاعتقاد المهندسين أن مستوى الماء في البحر الأحمر أعلى منه في البحر الأبيض وأن حفر ترعة عن طريق فرع النيل الشرقي تغرق الدلتا، ثم أرسل بعثة بحرية من الفينيقيين طافت حول إفريقيا عن طريق رأس الرجاء الصالح استغرقت فر رحلتها عامين وأثبتت فساد الاعتقاد بأن النيل يتصل بالمحيط.

ومن أهم ملوك هذه الأسرة "أبريس" الذي طمع في فلسطين لما رآه من تفكك اليهود وانقسامهم طوائف بعضها يميل للمصريين وبعضها يميل لدولة بابل، وتمكن في إحدى حملاته من الاستيلاء على بعض المدن الفينيقية.

وكان "أبريس" يحب الأجانب من الإغريق فثار ضده الجند بقيادة كبيرهم "أحمس" وأسقطوه وتولى مكانة "أحمس" الذي حكم البلاد أربعا وأربعين سنة، ولكن في أواخر أيامه ظهر من الشرق خطر جديد يهدد حدود مصر هو ظهور دولة الفرس على انقاض الإمبراطورية البابلية.

وفي عهد "إبسماتيك" الثالث دخل "قمبيز" ملك الفرس بلاد كصر ظافرا وأسس الأسرة السابعة والعشرين الفارسية، ولم يلبث المصريون بمساعدة الإغريق أن طردوا الفرس عام ٤٠٥ ق. م ولكن الفرس فتحوا مصر من جديد أيام الأسرة الثلاثين وأصبحت

جزءا من إمبراطوريهم، وظلت هكذا حتى جاء الإسكندر الأكبر فاستولى عليها وخلصها من عسفهم عام ٣٣٢ ق . م.


آسيا الصغرى
بلاد الحيثيين
كليكيا
حدود الفتوح المصرية
قرقميش
حلب
نهر الفرات
نهر العاصي
حماة
ارواد
قادش
قبرص
البحر الابيض المتوسط
بيروت
صيداء
صور
عكا
دمشق
مجدو
اورشليم
نهر الاردن
عسقلان
شاروهين
البحر الميت
شبه جزيرة سينا
الامبراطورية المصرية
في آسيا

الفصل الثاني عشر

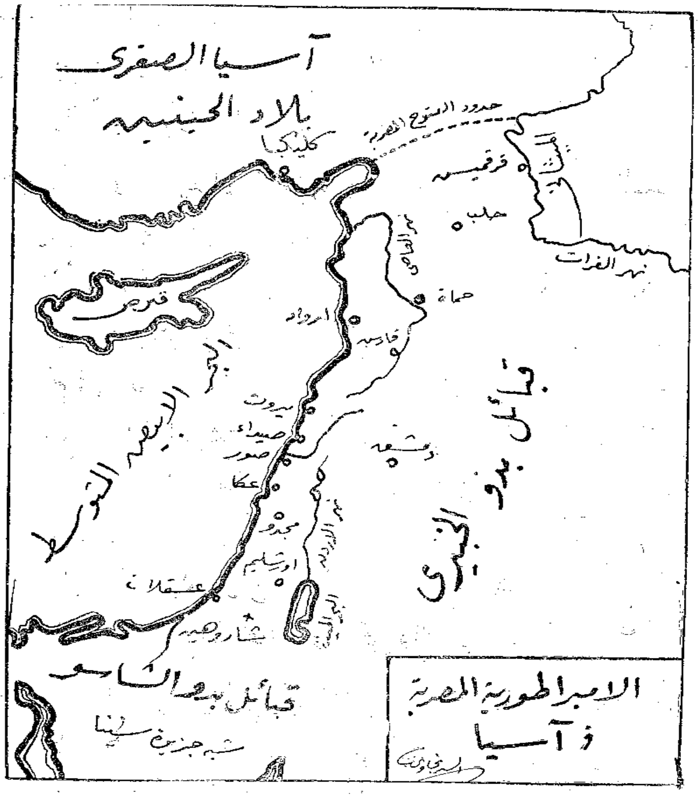
حضارة قدماء المصريين

إذا قلنا الحضارة فإنما نقصد مقدار ما وصل إليه رقي القوم في جميع مظاهر حياتهم كالدين واللغة والآداب والفنون والصناعات والأخلاق والعادات.

ونستطيع أن نستنتج بعد دراسة تاريخ قدماء المصريين على وجه الإجمال أن حضاراتهم كانت متأثرة في كل عصورهم بعقائدهم الدينية، فمثلا كانوا يعتقدون في الحياة بعد الموت، وهذا جعلهم يهتمون بتشييد قبورهم أكثر من اهتمامهم ببناء بيوتهم كما قدمنا، ثم إنهم كانوا يعتقدون أن الروح لا تعود إلى الجسد إلا إذا كان سليما فحنطوا الجثث قبل دفنها، وهكذا كانت العقائد الدينية أكبر عامل على إقامة القبور وتقدم فن التحنيط، ولم تكن إقامة المعابد الفخمة إلا لتكون أمكنة تتلى فيها الأدعية على أرواح الموتى من الملوك والعظماء، ومن هنا نرى أن الدين كان عاملا على ترقي البناء والهندسة وصناعة التماثيل والنقش والتصوير.

أما عن ديانتهم فإنهم كانوا يعبدون آلهة محلية، أي أن كل بلد كان له إله يعتقد الناس أنه يحمي البلد وأهله ويحارب في صفوفهم ضد أعدائهم، وكان يعظم شأن الإله المحلي إذا عظم شأن البلد الذي يعبد فيه؛ فمثلا كان

"فتاح" الإله المحلي لمنف، وعندما جعل "مينا" ذلك البلد مقرا للحكم عظم شأن "فتاح" وترقى فأصبح إلها عاما يعبد في كل أنحاء البلاد.



"الإمبراطورية المصرية في الجنوب"

وكذلك "أمون" إله طيبة المحلي نجده يصبح إلها عاما في الأوقات التي يؤول الحكم فيها إلى أمراء طيبة وكذلك شأن "رع" إله هليوبوليس وبقية آلهة مصر.

وأهم الآلهة العامة رع وأمون وأوزوريس وإيزيس وست وأمون رع، وكان أعظم هذه الإلهة شأنا إله الآخرة "أوزوريس" وكانوا يعتقدون أنه يحكم العالم الآخر ويرأس محكمة الحساب.

وكان اعتقاد المصريين في الحساب بعد الموت اعتقادا وثيقا، فإذا مات الميت استدعى إلى قاعة العدل وبها أثنان وأربعون قاضيا برئاسة "أوزوريس" ثم يسأل عما جنت يداه في الدنيا، ويترافع عن نفسه أمام القضاة كي يثبت براءته، وكان يحفظ المصري قبل موته صيغة المرافعة الآتية عن ظهر قلب:

"سلام عليك أيها الإله الأعظم صاحب الحق، لقد جئت إليك يا رب خاضعا لأعاين مجدك، إني أعرف أسمك وأسماء الأثنين وأربعين قاضيا الجالسين معك في قاعة الحق والعدل لقد أتيت إليك يا إلهي متحلي بالحق متخليا عن كل خطيئة، فإني لم أظلم أحدا، ولم أحنث في يمين، ولم أشته امرأة قريبي ولا مال غيري ولم أكذب قط، ولم أخالف الأوامر الإلهية ولم أسرق خبز المعابد ولم أنتهك حرمة جثث الموتى ولم أرتكب الفحشاء، ولم أبع القمح بثمن باهظ، ولم أطفف الكيل، ولم اقتنص طيور الآلهة، ولم أطارد حيواناتهم، ولم أتصيد الأسماك المقدسة من بحيراتها ولم أخالف نظام الري ولم أتلف الأراضي الزراعية، ولم أكن قوالا ولا نماما، أنا طاهر، أنا طاهر وبما أني مبرأ من كل الذنوب فأرجو أن أكون من الفائزين"

فإذا انتهى من المرافعة وناقشه القضاة عرض قلبه على الميزان، فإذا ثبتت للقضاة براءته صاح "أوزوريس" قائلا: "فليخرج الميت فائزا من قاعة

العدل وليذهب حيثما شاء ولتفتح له أبواب الجنة ولتوهب له حياة جديدة، وليجلس عن يميني في الفردوس السماوي".

أما إذا تبين للمحكمة أنه شرير صاح "أوزوريس" قائلا "أذهب عني أيها الشرير إلى الجحيم لتلاقي أشد العذاب والنكال، وأنتم أيها القضاة اقتلوه بسيوفكم وتغذوا الآن بلحمه واشربوا من دمه، وأنتم يا زبانية جهنم اسحبوه على وجهه إلى الجحيم واقطعوا رأسه على خشبة العار ومزقوا جسمه كل ممزق وألقوه في النار".

وكانوا يعبدون إلى جانب الآلهة العامة والمحلية بعض الحيوانات كالعجل والتمساح والقط والكلب لاعتقادهم أن أرواح الآلهة تحل فيها، وعبدوا كذلك عناصر الطبيعة التي أثرت في حياتهم كالشمس والقمر والماء.

ونستنتج من صيغة المرافعة أن الدين كان له أثر كبير في أخلاق المصريين وعاداتهم، فقد علمهم احترام الآلهة والاحتفاظ بحرمة الجيران والإحسان إلى الوالدين والامتناع عن الزنى والكذب والقتل والسرقة وبالجملة أبعدهم دينهم عن الخطايا والرذائل وأمرهم بالمعروف والتحلي بالفضائل.

ومن عاداتهم أنهم كانوا يكرمون عظماءهم ويتوارثون الحرف ويتزوج الأخ بأخته، ثم إنهم كانوا يتقربون إلى النيل فيرمون فيه فتاة قرب فيضانه، وقد أبطل هذه العادة (عمرو بن العاص) بعد أن فتح مصر.

ومن عاداتهم إقامة الولائم في المواسم والأعياد وقت الظهر فيشترك فيها الرجال والنساء ويرقص الجميع على الأنغام الموسيقية، وكان للمرأة من

الحقوق ما للرجل، فكانت تحضر الحفلات وتتقلد المناصب الكبيرة في الدولة وتتولى الكهانة والحكم.

وكانت كتابتهم في بدء العصر التاريخي هي الكتابة الصورية التي ظلت ترتقي حتى توصلوا إلى وضع الرموز والحروف وتكوين الكلمات، ولما أغار الهكسوس على مصر تعلموا كتابتها وعلموها للفينيقيين فنقلوها إلى بقية أجزاء العالم القديم، وعلى الآثار المصرية كتابات باللغة الصورية والهيروغليفية والديموطيقية.

ونبغ المصريون في الفلك والهندسة العملية والكيمياء والسحر والرياضة، وارتقت كتابة الأدعية الدينية والقصص ودونت الكتب على أوراق البردي وعلى جدران الهياكل والمباني القديمة، ومصر أقدم الأمم التي عنيت بوضع القوانين وتدوينها، وعنها أخذ مشرعو الإغريق والرومان.

وأهم ما يلفت النظر في حضارة المصريين نبوغهم في البناء والنحت وصناعة التماثيل والتلوين والرسم وصناعة الأواني الخزفية والحلي الدقيقة من الذهب والنحاس، ثم أنهم نبغوا في نسج الكتان من الخيوط الدقيقة وصنعوا الورق من نبات البردي ومهروا في صناعة النجارة ودبغ الجلود وعمل الأسلحة الحربية.

وكانوا كما قدمنا متصلين بشعوب البحر الأبيض المتوسط وأرض الفرات عن طريق البحر والقوافل، وكان يحمل تجارهم خيرات هذه البلاد كلها إلى مصر، وثد قدمنا في الكلام عن الأسرة السادسة والعشرين أن أحد

ملوكها "نخاو" أرسل أول بعثة بحرية طافت حول إفريقيا وكشفت سواحلها الجنوبية، وهذا معناه أن الأسطول المصري كان يتجول في البحرين الأحمر والأبيض ويسير فب المحيط الأطلسي.

أما في داخل البلاد فكانت تقام الأسواق لتبادل السلع وكانت القوارب التجارية دائمة التنقل في مجرى النيل تحمل الحاصلات من إقليم إلى آخر.

الفصل الثالث عشر

علاقة مصر ببابل وأشور وكلديا

ينبع نهرا دجلة والفرات من هضبة أرمينيا ويسيران نحو الجنوب حتى يلتقيا قرب المصب ويصبا معا في الخليج الفارسي، ووادي النهرين يمتاز باعتدال مناخه وخصوبة تربته الغرينية التي يجلب فيضان النهرين إليها كميات عظيمة من الطمي كما هو الحال في دلتا مصر، ونظرا لتوفر شروط الزراعة كانت هذه البلاد مهدا لحضارات قديمة هي البابلية والأشورية والكلدانية.

وكان يسمى الجزء الأدنى من الوادي في الأزمان القديمة أرض بابل نسبة إلى مدينة بابل العظيمة، وأطلق على نفس هذا الإقليم اسم (كلديا) لأن أهل الإمبراطورية البابلية الأولى كان يطلق عليهم الكلدانيون.

ويسمى الجزء الواقع شمال بابل بين النهرين بأرض الجزيرة، أما الجزء الأعلى الممتد من نهر دجلة إلى التلال والجبال فقد أطلق عليه أشور.

ويرجع تاريخ بابل إلى أربعة آلاف سنة قبل الميلاد حيث كانت كلديا مقسمة إلى مدن حكومية مستقلة.وأهم الحوادث القديمة أن "سرجون" الأول ملك مدينة (أجاد) وحد البلاد كلها وحكمها ومد نفوذه إلى البحر الأبيض المتوسط فاستولى على فينيقيا وفلسطين وسوريا واتصل بمصر عن طريق

التجارة، وقد عثر المنقبون في العراق أخيرا على تماثيل بابلية من عهده تشبه تماثيل مصر مما يدل على وجود علاقات بين البلدين.

وحكم حمورابي البلاد الموحدة كلها حوالي (٢٢٠٠ ق. م) بعد أن كانت قد تفرقت بموت سارجون، وحمورابي صاحب الفضل في إعادة الإمبراطورية البابلية إذ بسط نفوذه على فلسطين وسوريا وفينيقيا، ثم اهتم بالإصلاح الداخلي فازدهرت التجارة ونشطت العلوم والآداب في عهده، وهو الذي دون القوانين البابلية بعد أن زاد عليها ونقحها، وقد عثر المنقبون على حجر دونت عليه هذه القوانين التي كان مبدأ القصاص فيها (العين بالعين والسن بالسن) وهي تعتبر من غير شك أقدم قوانين العالم.

وبعد هذا بقرون قليلة هاجر قوم من البابليين وسكنوا أرض أشور وظلوا خاضعين لحكومة بابل الجنوبية، ولكنهم تدرجوا في القوة حتى استقلوا وتمكنوا أخيرا من الاستيلاء على أرض الجزيرة وعلى بابل نفسها، وبذا ظهرت دولة أشور، وقد عثر المنقبون في تل العمارنة على ألواح تثبت أن مصر كانت تربطها بدولة أشور صلات تجارية أيام أخناتون.

وكان الأشوريون متوحشين محبين للحرب وترتكز سيادتهم دائما على أساس الجيوش، وكان لا يعني ملوكهم بشيء مثل عنايتهم بالرحب وما ينتج عنها من السلب والتخريب وكانت عاصمتهم مدينة نينوي على نهر دجلة.

وكان "سرجون الثاني" أول ملك أشوري حارب مصر وأرغمها على دفع الجزية كما أرغم سكان شبه جزيرة العرب وقبرص، وثار ضده اليهود فأعدم نصفهم وحمل الباقين إلى أشور.

وحكم بعده ابنه "سنخاريب" الذي أخضع ثورات فلسطين وبابل ورغب في الانتقام من مصر لمساعدتها الثوار فغزاها ولكنه لم يتم فتحها.

واستطاع "آسر حادون" أن يغزو مصر ويستولي عليها وكان يحكمها إذ ذاك "طهراقة" الملك الاتيوبي، وبذا انقضى حكم الاتيوبيين وأصبحت مصر جزءا من الإمبراطورية الأشورية.

ووصلت أشور منتهى قوتها في عهد "أشور بانيبال"، وفي أيامه استردت مصر استقلالها وقامت فيها ملكية قوية على رأسها "أبسماتيك الأول" مؤسس الأسرة السادسة والعشرين، وقد انتهز "أبسماتيك" فرصة الفتن التي قامت في أشور وقيام بابل والدول الأخرى ضدها واستطاع تخليص مصر من الأشوريين.

وبسقوط أشور أصبحت بابل من جديد مقر الإمبراطورية التي أطلق عليها الإمبراطورية الكلدانية وأعظم ملوكها بابو خد ناصر أو (بختصر) الذي حكم ما يقرب من ستين عاما وضم جزءا عظيما من آسيا الشرقية لإمبراطورتيه وهزم جيشا مصريا يقوده "نخاو" فرعون مصر هزيمة شنيعة عند قرقميش، وهو الذي تعزي إليه إقامة الحدائق المعلقة التي تعتبر إحدى عجائب الدنيا السبع.

ولكن خلف نخاو (ابسماتيك الثاني) الذي حرض اليهود والفينيقيين على التحالف ضد كلديا، وفي أثناء الحرب قاست أورشليم عاصمة اليهود وصور عاصمة الفينيقيين أهو إلا شديدة وقتل ملك الإسرائيليين، ولما تم لملك كلديا "بابو خد ناصر" إخضاع بني إسرائيل وفينيقيا اكتفى بهذا لإذلال مصر ولم يحاربها لأنها كانت ضعيفة بحيث لا تكون خطرا على الدولة الكلدانية وبموت "بابو خد ناصر" دخلت أشور وكلديا وسوريا في حوزة الإمبراطورية الفارسية.

الفصل الرابع عشر

علاقة مصر ببني إسرائيل

تقع فلسطين وطن اليهود على امتداد الزاوية الجنوبية الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، وهي شريط ضيق من الأرض يقع بين الصحراء والبحر.وكثير من هذه الأرض مجدب لأن الصحراء متوغلة في فلسطين الجنوبية كما أن الأجواء الشمالية بها تلال لبنان الجيرية، ووديان فلسطين الشمالية خصيبة كثيرة الخيرات، والإقليم كله لا يصيبه شيء من أمطار فصل الصيف، ويعتمد في الزراعة والإنتاج على المطر الشتوي، ولذا كان المحصول هناك أقل بكثير من الأرض التي تتمتع بأمطار صيفية.

ويرجع أصل بني إسرائيل إلى قبائل كانت تسكن إقليم كلديا، ثم هاجروا حوالي سنة (٢٠٠٠ ق. م) بزعامة سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى فلسطين واتخذوها وطنا لهم.

وبقى (إبراهيم) يبشر بدينه الحنيف حتى توفي وجاء بعده ابنه إسحاق وجاء من بعد إسحاق يعقوب الملقب بإسرائيل، فرزقه الله اثنى عشر ولدا صاروا زعماء بني إسرائيل وكان أصغرهم سيدنا يوسف.

وقصة سيدنا يوسف الشهيرة هي التي أدت إلى دخولهم مصر في عهد أحد ملوك الهكسوس، وكثر عددهم حتى أصبحوا خطرا على سلطة فرعون

لأنهم كانوا محافظين على تقاليدهم ولم يندمجوا في الشعب المصري، لذا اضطهادهم الفراعنة وبالغوا في إيذائهم وتسخيرهم في بناء عماراتهم، وظلوا تحت نير المصريين حتى ظهر بينهم موسى عليه السلام.

وقادهم موسى إلى الأرض الموعود بها وهي فلسطين كي يخلصهم من عنف الفراعنة، وتبعهم فرعون فأنجاهم الله وغرق فرعون ورجاله في مياه البحر الأحمر، وظل (موسى) وقومه أربعين سنة يتيهون في الأرض بين مصر وفلسطين. ومات (موسى) قبل أن يصلوا إليها بعد أن علمهم قواعد شريعته وترك قيادهم من بعده لأخيه (هارون) وتمكن (هارون) من الاستيلاء على أرض كنعان وأقام دولة العبرانيين.

وقد قدمنا في الكلام عن الملك "منفتاح" أن بني إسرائيل خرجوا من مصر في عهده، ورغم أن معظم المؤرخين يقرون ذلك فقد أوضحنا أن هذا التحديد لا يمكن الاعتماد عليه من الوجهة التاريخية اليقينية.

أما بلادهم فقد كانت جزءا من مصر في عهد الإمبراطورية المصرية "الأسرة الثامنة عشرة" ولكنهم انسلخوا عن مصر واستقلوا أيام "أخناتون"، ولما أعاد سيتي الأول ورمسيس الثاني سيادة مصر على أملاكها الأسيوية خضع بنو إسرائيل لمصر. ولكن سيادة الفراعنة لم تدم عليهم طويلا، ولم تلبث بلادهم أن سلخت من مصر في عهد اضمحلالها بعد الأسرة التاسعة عشرة.

وأشهر ملوكهم داوود وسليمان عليهما السلام، ويقول المؤرخون إن "شيشاق" الملك اللوبي عقد معاهدة مع "سليمان" وتزوج سليمان من إحدى بناته، ولكن "شيشاق" لم يلبث أن أساء إلى صهره وغزا فلسطين وسلب مدينة أورشليم وحمل إلى مصر كنوز سليمان الذهبية، وقد قدمنا أن أخبار هذه الحملة مدونة في التوراة ومنقوشة على حوائط الكرنك.

الفصل الخامس عشر

علاقة مصر بالفينيقيين

فينيقيا اسم قديم لشريط ضيق من ساحل سوريا يبلغ طوله ٢٠٠ ميلا ويتراوح عرضه بين ثلاثة وسبعة أميال، وكانت أرضها خصبة ولكنها لم تكن تكفي لتموين سكانها، ولذا اشتغل معظمهم بالملاحة والتجارة، وساعدهم على ذلك أن ساحلهم كثير المرافئ الصالحة لرسو السفن، يضاف إلى هذه الميزات كلها أن البلاد متوسطة بين مصر والبلاد الأسيوية مما جعلها بلادا تجارية تحمل السلع بين مصر وبلاد الفرات وجزيرة العرب.

الفينيقيون من جنس سامي لغتهم كثيرة الشبه باللغة البابلية، وحضارتهم مستمدة من بابل، واهم مدنهم صيداء التي ظلت صاحبة السيادة على بقية المدن الفينيقية حتى سقطت وآلت الزعامة من بعدها إلى مدينة صور. ولما كان الفينيقيون لا يهمهم إلا نجاح تجارتهم فإنهم لم يهتموا بالآداب والعلوم والسياسة، ولم يكن خضوعهم للدول الأخرى يضيرهم مادامت تجارتهم رائجة، ولقد حكمهم المصريون والأشوريون والكلدانيون، وأخيرا حكمهم الفرس فالإغريق والرومان.

وتتلخص علاقاتهم بمصر في أنهم كانوا يتصلون بها بروابط تجارية في عهد الأسرة السادسة إذ جلبوا لها الأخشاب من لبنان.

وفي عهد "تحتمس الثالث" فتحت الجيوش المصرية سوريا وفلسطين وبلاد فينقيا وصارت موانيها كلها محطات للأسطول المصري ومعاقل للجند المصريين، ثم إن تحتمس عين الحكام المصريين عليها، وبقيت تحت سلطة مصر حتى جاء عهد "أخناتون" وضاعت أملاك مصر الأسيوية فخرجت فينيقيا عن طاعة مصر، ولكن "سيتي الأول" جرد حملة موفقة إلى سوريا وأعاد معظم أجزائها وأرجع الأسطول المصري إلى محطاته في الموانئ الفينيقية.

وظل الفينيقيون خاضعين لمصر يخدمون فرعنتها ويتبادلون التجارة معها، وعاش عدد عظيم منهم في منف وبعض جهات الدلتا حتى جاء نخاو فأرسل أسطولاً مصريا بحارته من الفينيقيين للطواف حول أفريقيا وكشف سواحلها الجنوبية.

الفصل السادس عشر

علاقة مصر بالفرس

كانت تسكن الجهات المحيطة ببحر قزوين فيما قبل التاريخ قبائل من الجنس الآ ري نزح بعضها من زمن لا يمكن تحديده تماما إلى هضبة إيران. ولم يكن أولئك النازحون قد تعلموا حياة التحضر والاستقرار، ولكنهم كانوا لا يزالون من الرعاة، ومن هؤلاء نشأ الميديون ثم الفرس الذين انجبوا الحكيم العظيم (زروستر) والزعيم الأكبر (كورش).

أما (زروستر) فهو حكيم عاش قبل الميلاد بألف عام. ويعزي إليه أنه وضع المبادئ الدينية التي اعتنقها الشعب الفارسي في عهود بداوته، فقد رأى من المشاهدات المحيطة به أن العالم نهب بين قوتين الخير والشر، رأى المروج الخضراء والصحراء الجرداء. ورأى الصحة والمرض، والفضيلة والرذيلة. فاستخلص من هذا أن الدنيا تحكمها قوتان إله الخير والنور المسمى (ارمزد) وإله الشر والظلمة المسمى (اهريمان). وأن واجب كل إنسان أن يقف في صف إله الخير حتى يقضي على الشر. وكانت الزراعة من أعمال الخير لأن الأرض الخضراء من مملكة (ارمزد). وكل من زرع شبرا من الأرض فإنما يوسع مملكة الخير والنور، وأخيرا لابد وأن يتغلب الخير ويقع الشر صريعا تحت قدميه، ثم ينفرد الخير بالسيادة على الدنيا.

وبقى دين (زروستر) سائدا حتى منتصف القرن السابع الميلادي حين ظهر الإسلام وقضى على الديانات الوثنية، وفر أتباع "زروستر" من وجه المسلمين إلى الهند وظلوا يعتنقون دينهم حتى اليوم من غير تغيير في جوهره، ويطلق عليهم الآن (الفارسيس).

وكان الفرس في أول أمرهم خاضعين للميديين، وظلوا كذلك حتى ظهر "كورش" مؤسس دولة الفرس فخلصهم من الميديين، ثم بدأ يوسع رقعة البلاد فاستولى على ميديا وليديا وآسيا الصغرى وتوغل شرقا حتى شاطئ السند. لذا خشيت الدول بأس الفرس وكونت ضدهم تحالفا ضم بابل وليديا ومصر وبعض ولايات الإغريق.

ولم يلبث "كورش" أن غزا ليديا وأعادها لطاعته وفتح بابل، وبذا أصبحت فارس أقوى دول الشرق المعاصرة لها، ولم يبق أمامها إلا الانتقام من مصر.

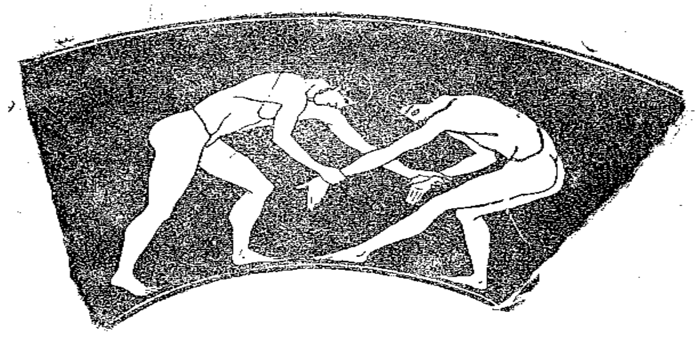
وبموت "كورش" غزا قمبيز ملك الفرس بلاد مصر وكان على عرشها إذ ذاك "ابسماتيك الثالث" فانتصر "قمبيز" ودخل البلاد وأخذ فرعون أسيرا عام **٥٢٥** ق. م.

وبعد أن دخل قمبيز أعد ثلاثة جيوش لغزو بلاد الإغريق وبلاد النوبة ومدينة قرطاجنة، وتصادف أن فشلت هذه الجيوش كلها فغضب "قمبيز" وصب جام غضبه على رءوس المصريين فهدم معابدهم وقتل بنفسه معبودهم

العجل أبيس في إحدى الحفلات الدينية ومات قمبيز أثناء عودته لبلاد فارس سنة ٥٢١ ق. م.

وتولى بعده ابنه دارا الأول (الأكبر) الذي بدأ يصلح ما أفسده أبوه فأحسن إلى المصريين واحترم ديانتهم وتقاليدهم واشترك معهم في حفلاتهم، بل أكثر من هذا أنه أقام للألة (أمون) معبدا في واحة سيوه، ثم وصل النيل بالبحر الأحمر مما يدل على اهتمامه بالشئون التجارية والعمرانية.

وفي سنة (٤٨٥ ق. م) مات "دارا" وخلفه ابنه "اجزرسيس" الذي أخمد ثورة قام بها المصريون ليستقلوا عن الفرس، وفي (سنة ٤٠٥ ق. م) تمكن المصريون من الاستقلال بمساعدة الإغريق وطردوا الفرس من مصر، وبقيت الحال كذلك حتى عاد الفرس وفتحوا مصر عام (٣٤٠ ق. م) وبقيت جزءا من أملاكهم حتى أخرجهم منها "الإسكندر الأكبر" وضمها للإمبراطورية سنة (٣٣٢ ق. م).



المصارعة عند الإغريق

الكتاب الثاني

الإغريق وقيام البطالسة

الفصل الأول

أثر العوامل الطبيعية في حضارة الإغريق

بلاد الإغريق الحقيقية هي الجزء الضيق الجنوبي من شبه جزيرة البلقان، ورغم صغر مساحته فإن الجبال الكثيرة ساعدت على تقسيمه إلى عدة أقسام صغيرة، ولما كان من الصعب عبور هذه الجبال فقد سار كل قسم في سبيل الرقي والتطور مستقلا عن غيره، وعلى هذا نشأت حكومات عديدة، وصعب نشوء شعب موحد له حكومة واحدة.

وساحل بلاد اليونان كله تعاريج وفجوات صالحة لرسو السفن. أضف إلى ذلك وجود الجزر المبعثرة في بحر إلا يونيان في الغرب وبحر إيجا في الشرق، ثم إن أرخبيل ايجا يتصل بالساحل الشرقي لآسيا الصغرى حيث كان يعيش قوم من الجنس اليوناني، لهذا كله لم يكن غريبا أن يشتغل اليونان بحكم موقع بلادهم بالتجارة والملاحة والاستعمار.

وفوق هذا فالمناخ معتدل والأرض خصبة والمناظر ساحرة جميلة، ولذا كانت بلاد اليونان بطبيعتها مرتعا خصبا لقيام جنس متحضر ترك من بعده مدنية خالدة هي التي أخذت عنها أوروبا الحديثة أصول نهضتها وقواعد تمدنها.

الفصل الثاني

أصل الإغريق

لم يسكن الإغريق أول من سكنوا شبه الجزيرة المسماة باسمهم، بل سكنها قبل الميلاد بأكثر من عشرين قرنا قبائل من الجنس الايجي تحضروا وأبحروا إلى مصر وغيرها وأقاموا المدن ونظموا الجيوش.وأخيرا نزح من الأجزاء المحيطة ببحر قزوين قوم من الجنس الآ ري الذي ينتمي إله معظم شعوب أوروبا وبلاد الهند، وكانوا أقل في تمدنهم من الايجيين، استولوا بالتدريج على ساحل آسيا الصغرى وجزائر ايجا وأراضي أوروبا الوسطى، ثم اختلطوا بالايجيين فنشأ من تناسلهم الشعب اليوناني أو الهليني الذي تناوله التاريخ.

ولم يحتل الآريون شبه الجزيرة دفعة واحدة بل جاءت قبائلهم متفرقة تسعى وراء الرزق، وكانت أقدم القبائل استيطانا لبلاد الإغريق قبيلة الآخيين وتلتها قبيلة الدوريين الذين قدموا إلى بلاد الإغريق قبل الميلاد بأكثر من خمسة عشر قرنا وأسسوا مدينة أسبرطة العظيمة، وبعد هذا بما يقرب من أربعة قرون جاءت قبائل الأيونيين وانتشر الجميع في أنحاء شبه الجزيرة والجزر المحيطة بها.

ولقد تأثر الشعب الهيليني بحضارة كريد التي ازدهرت في "كنوسوس" قبل الميلاد بأكثر من ثلاثين قرنا، والتي يقول المؤرخون أنها مستمدة من حضارة الفراعنة لوجود تشابه بين لغة كريد واللغة الهيروغليفية، كما أن

الإغريق استفادوا أيضا من الفينيقيين فنقلوا عنهم حروف الهجاء وبعض الفنون والصناعات كصناعة السفن والملاحة والتجارة، وقد أثبت الباحثون أخيرا أن الإغريق استمدوا معظم عقائدهم الدينية من الفينيقيين وأهالي كريد هي ألهه الحكمة عند اليونان وكان الرومان يسمونها مينرفا – Minerva وهي ابنة كبير الآلهة (زوس) وأمها (متيس) ويورى في أساطير الإغريق أن الاله (زوس) ابتلع أنها قبل ولادتها وأن (أثينا) خرجت بعد ذلك من رأسه وفي يدها سلاحها.



أثينا

الفصل الثالث

العهد الهوفيرى والجامعة الهلينية

الإلياذة والاودسا: لسنا نجد وصفا للإغريق في عهود بداوتهم الأولى أدق مما جاء في قصائد الشاعر [هوميروس] فهو يصورهم يرعون الغنم والماشية ويفلحون الأرض ويصيدون ويحاربون ويبحرون، ثم يجاوز هذا إلى الكلام عن عقائدهم الدينية وعواطفهم النفسية، فيعد آلهتهم[1] ويبين إلى أي حد كانوا يقاسون في سبيل الحب والحرية والوطن والواجب. وإلى أي حد كانوا يحترمون النساء، وأهم قصائد [هوميروس] [الإلياذة] و [الاودسا] فالأولى تقص أخبار اليونان في حربهم مع أهل (تروادة) بآسيا الصغرى، وأما الثانية فتتضمن أخبار القائد اليوناني العظيم "أوديسيادس" بعد أن وضعت هذه الحرب أوزارها وتصف ما لاقاه من الأهوال والمخاطر وهو في طريقه إلى بلاده.

هوميروس – وناظم هاتين القصيدتين هو شاعر اليونان البليغ "هوميروس" وتعتبر قصائده القصصية البذرة الأولى من بذور البلاغة اليونانية والدعامة الأولى للأدب اليوناني، ويرجع تاريخه إلى القرن العاشر أو التاسع قبل الميلاد، وكل ما يعرف عنه انه كان سليب البصر في أخريات أيامه وأن الكتابة لم تكن شائعة في عصره، لذلك كان يحفظ شعره عن ظهر قلب

[1] كان يعبد اليونان آلهة متعددة أعظمها الإله (زوس) وكانوا يلقبونه رب الأرباب وتدعي زوجته "هيرا" ومن بين آلهتهم أفر وديت الآهة الحكمة (أثينا) ثم (بوزيدون) أله البحر ثم (أبولو) إله الشعر والموسيقى و "فولكان" إله النار وغيرهم ألهه كثيرون.

وينشده على الناس وهو يلحن على القيثار متنقلا من بلد إلى آخر، أو يلقنه لجماعة المنشدين الذين يذهبون في الحفلات الخاصة والأعياد العامة يلقونه بشيء من الترتيل والغناء، وانتقل بواسطة أولئك من جيل إلى جيل، ولم تدون هاتان القصيدتان إلا في عهد "سولون" المشروع الآثيني العظيم الذي ولد حوالي ٦٣٩ ق. م.

أهمية شعره — ورغم أن قصائد "هوميروس" مشحونة بالأساطير الخرافية فأنا نستطيع رغم ذلك أن نستخلص منها الحقائق التاريخية الآتية:

(١) الزراعة — إن اليونان كانوا يعرفون طرق زراعة الأرض ويعرفون كيف تقام المدن المحصنة.

(٢) اللغة — أنهم كانوا يتكلمون لغة واحدة لكنهم لم يتعارفوا ويتحدوا لوجود الفواصل الطبيعية التي تعوق اتصالهم كالجبال والخلجان.

(٣) الاجتماعات الدينية — رغم وجود هذه الفواصل الطبيعية كانت تربط اليونان اجتماعات مقدسة عامة يحجون فيها إلى معابد الآلهة في مواسم خاصة، فمثلا كان يجتمع ممثلو كل الولايات اجتماعا كبيرا مرة في كل أربعة أعوام بمكان يسمى (أوليمبيا) حيث يوجد معبد كبير الآلهة (زوس) فتقدم القرابين والضحايا وتجري الألعاب المختلفة التي أهمها سباق الأقدام وسباق الخيل وسباق العربات والملاكمة والمصارعة، ويعتبر الفوز في هذه الألعاب شرفا رفيعا ولو أن الجائزة التي تقدم

للفائزين ليست إلا إكليلا مصنوعا من غصون شجر الزيتون[٢] ومن أهم المجامع الدينية احتفال الإغريق بالإله "أبولو" في معبده بجزيرة ديلوس.

(٤) نظام الحكومة – إن كل ملك كان يحكم قبيلته كما يحكم الوالد أسرته، وكانت الشؤون العامة يتشاور فيها الملك مع مجلس من شيوخ الأسرات الشريفة في قصر الملك أو في الفضاء الملاصق له، حيث يستطيع العامة من الأحرار سماع المناقشة ولكن لم يكن يسمح لهم بالكلام، فكانوا يظهرون موافقتهم بالتهليل ويعلنون عدم الموافقة بالصمت.

وكان الملك هو القائد الأعلى للجيش وكان فوق هذا يشغل منصب كبير الكهنة ويقدم القرابين للآلهة باسم شعبه.

(٥) الروح الوطنية – إن الروح الوطنية كانت قوية عند الإغريق، وهذه الروح هي التي جعلتهم يحاربون الفرس فيما بعد، وجعلت الإسكندر أخيرا يوسع إمبراطورته حتى بلاد الهند شرقا.

الجامعة الهيلينية: وتتلخص مظاهر الجامعة الهيلينية فيما يأتي:

(١) الألعاب الأوليمبية (٢) المجامع الدينية (٣) وحدة اللغة (٤) أشعار "هوميروس" وقد سبق الكلام عنها جميعا.

[٢] نقلا عن الجزء الأول من كتابنا "قصص اليونان"

الفصل الرابع

عهد المدن الحكومية

تاريخيا يبدأ هذا العهد منذ بدت لنا بلاد اليونان منقسمة إلى ولايات صغيرة تسمى كل واحدة منها [المدينة الحكومية] ويرجع تاريخه إلى ما يقرب من ستة قرون قبل ميلاد المسيح.

المدن الحكومية: أما المدينة الحكومية فتشمل بلد محاطا بأسوار منيعة خارجها منطقة واسعة من الحقول تحوط هذه الأسوار، وكانت بلاد اليونان منقسمة إلى عدد عظيم من هذه المدن لكل مدينة قوانينها وجيشها وحكومتها، وكل ما طرأ عليها من التغيير في ذلك العهد التاريخي هو أن حكوماتها تحولت من النظام الملكي إلى النظام الجمهوري ما عدا اسبرطة فقد ظلت محافظة على حكومتها الملكية القديمة.

وأهم المدن الحكومية في بلاد اليونان إسبرطة الواقعة في الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة، وأثينا وتقع في وسطها، ثم ولايات أخرى مثل كورنث وارجوس وأركاديا وطيبة ومسينا.

١- اسبرطة

ليكورغ: "ليكورغ" مشروع اسبرطي عاش في القرن الثامن قبل الميلاد، يعزي إليه أنه وضع الدستور الاسبرطي، وبمقتضاه يتولى حكومة البلاد ملكان بالاشتراك، ولكن كانت سلطتهما محدودة وكانت السلطة الحقيقية في قبضة (مجلس الشيوخ) المكون من ٢٨ عضوا يزيد سن العضو عن ٦٠ عاما، واختصاص هذا المجلس تحضير المشروعات قبل عرضها على الجمعية العمومية التي تبدي القرار الأخير.

وكان لكل اسبرطي جاز الثلاثين حق العضوية في هذه الجمعية، ولم يكن من اختصاص أعضائها بحث المشروعات والمناقشة في موضوعها بل عملهم قاصر على أبداء موافقتهم بالتهليل أو إظهار عدم الموافقة بالتزام الصمت.

التربية الاسبرطية: وكان الغرض الأسمى في التربية الاسبرطية إعداد الشبان ليكونوا جنودا شجعانا، فكان يعرض الأطفال بعد ولادتهم على أعضاء مجلس الشيوخ، فإذا كان الطفل سقيما تبدو عليه علامات الضعف أخذوه من أمه وأمروا بإعدامه في الحال، وتبدأ الحكومة تدريب الأولاد على التمارين الرياضية وهم في سن السابعة، وكانوا لا يتعلمون شيئا من الفنون غير الموسيقى لاعتقادهم أنها تنشطهم، وكان الاسبرطي يعيش في المعسكر عيشة التقشف والخشونة منذ طفولته حتى يوافيه أجله، وكانت تربى البنت تربية تعدها لتكون أما قوية سليمة الجسم فتشترك في السباق والرقص في

الحفلات العامة وغيرها من الألعاب الرياضية، وهكذا استطاع [ليكورغ] بتشريعه هذا أن يخلق من الاسبرطيين جماعة حربية يعيش أفرادها مجتمعين في المعسكر كما يعيش النحل في الخلية.

النتائج ولما كان غرض [ليكورغ] من القوانين التي وضعها لاسبرطة تخريج شعب من الجنود فإن اسبرطة ظلت قرونا عديدة أقوى مدن الإغريق من الناحية الحربية، ولكنها كانت أقلها علما وأحطها في الفنون والآداب، فبينما أصبحت أثينا مهد الفنون ومهبط الخيال والحكمة ومقام الأبنية الفخمة الجميلة. كانت اسبرطة لا تزال قرية كبيرة مساكنها من الطين والقش، يأويها أناس أنصاف متوحشين.

٢- أثينا

الملكية: كانت حكومة أثينا في عهدها القديم لا تختلف عما جاء في وصف "هوميروس" الذي ذكرناه، ولكن يدل تاريخها على أن نفوذ الملكية كان يقل بالتدريج حتى أصبحت السلطة كلها في أيدي الإشراف في العهد التاريخي.

حكومة الأشراف – ولكن حكم الأشراف كان فاسدا فلم يهتموا إلا بصالحهم مغفلين مصالح السواد الأعظم من الشعب، ولم يكن لأثينا من القوانين المدونة ما يضمن سيادة العدل، وكثيرا ما كان القضاة يحابون الأشراف ويميلون إلى جانبهم.

قانون الديون: وأقسى قانون كان يئن منه العامة هو "قانون الديون" الذي كان يخول للدائن الحق في بيع المدين وأفراد أسرته وكل ما يملك من متاع في سبيل تسديد دينه، وكانت قلة المحصول قد أوقعت الكثيرين في الدين، ومن ثم تحول عدد عظيم من المدينين إلى حالة الرق.

دراكو – وأخيرا عهد الأشراف إلى (دراكو) وضع قانون مدون سير عليه البلاد، ولكن قانونه لم يخفف من بؤس العامة لأنه لما يعالج الداء الأساسي المتعلق بالديون، ثم إن بعض قوانينه الأخرى كانت قاسية لدرجة أثارت الخواطر وحركت سخط الشعب، حتى قال الناس في هذه القوانين إنها سطرت بالدماء لا بالمداد.

سولون – وكانت الأحوال تنذر بقيام ثورة دموية هائلة لولا أن أختار الأشراف (سولون) المشروع الحكيم لإصلاح القوانين الآثينية، وهو يعتبر منشئ أثينا ومن كبار حكماء اليونان، وكل ما يعرف عنه أنه ولد حوالي ٦٣٩ ق. م من أصل شريف، وأنه اشتهر بمهارته في الحرب ونبوغه في نظم الشعر، وأن وطنيته الصادقة أكسبته ثقة كل الأحزاب والطبقات في أثينا.

إصلاحاته – وأول تغيير أحدثه (سولون) أن ألغى الديون القائمة ونسخ (قانون الديون) الذي يخول للدائن استرقاق مدينه، ثم أصلح بقية القوانين بما يتفق مع مصلحة جميع الطبقات، ولكنه كان أميل إلى جعل الأرض أساسا للحقوق السياسية بحيث لا يتمتع بهذه الحقوق إلا الذين يملكون مساحات واسعة من الأرض.

الحكم المطلق – ولكن رغم ذلك لم يقف تيار الاستياء فرغب الأشراف في استعادة سلطانهم القديم بينما رغب أفراد الطبقات السفلي في التمتع بحقوق أكثر من التي أعطيت لهم، وتحول النزاع إلى حروب أهلية ظهر إثناءها (بيز يستر اتاس) زعيما للشعب، وهو من أقارب (سولون) لم يلبث أن ترأس الحكومة وأعلن نفسه حاكما مطلقا إلا أنه كان مستنيرا قرب منه الحكماء والعلماء وعاضد رجال الفن والأدب، وسير الحكومة طبق قوانين (سولون) فجلب لأثينا رفاهية لم تشهد مثلها من قبل.

هيبارك وهيبياس: وتولى بعده ابنه (هيبارك) ولكنه قتل، فخلفه أخوه هيبياس وكان كثير الشكوك يخشى أن يفتك به الناس فقسى في معاملتهم حتى طردوه من البلاد ففر إلى فارس وعاش في بلاط ملكها ومن بعده ساد الحكم الديمقراطي في أثينا وانقضى الحكم الأوتوقراطي.

الفصل الخامس

عصر بركليس

بركليس: في عام ٤٨٠ ق. م صوت الشعب الأثيني أن يتولى زمام الأمور في أثينا (بركليس) وهو أشهر سياسي عرفه التاريخ اليوناني، حكم أثينا ما يقرب من نصف قرن حتى وفاته عام ٤٣٠ ق. م، وكان في أول أمره زعيم حزب سياسي ترمي أغراضه إلى معاداة اسبرطة والعمل على جعل أثينا صاحبة السيادة، وكان يرغب في إقامة إمبراطورية أثينية تحكم شعوب اليونان كلها، ولقد نجح في مشروعه هذا فترة من الزمان فرفع شأن أثينا وأنزلها منزلة لم تشهد مثلها من قبل.

حكومته: وحول "بركليس" أثينا إلى ديمقراطية تامة، فألغى مجلس الأشراف القديم ووضع السلطة كلها في يد مجلس الخمسمائة الذي يمثل الشعب تمثيلا صادقا، وأشرك المواطنين في إدارة الحكومة فكان يقترع كل عام لاختيار ٦٠٠٠ مواطن يشتركون في أعمال الحكومة ويتقاضون أجورا على أعمالهم وفتح في وجوههم السبل إلى أعظم مناصب الدولة.

أما الوزراء وأعضاء مجلس الشيوخ والقضاة فكانوا كذلك يختارون بوساطة الاقتراع العام، وعلى هذا فقد كان كل مواطن يشترك في الحكومة إما بتسلم أحد المناصب أو بالتصويت في الجمعية العمومية، وكان المنصب الوحيد الذي لا ينتخب بالتصويت العام هو منصب القائد الأعلى للجيش.

كانت تعقد الجمعية العمومية من الشعب في سوق من الأسواق العامة يدعى "أجورا" وكان لكل مواطن في المدينة أو الأرياف المجاورة أن يحضر الجلسات ويصوت فيها، أما نظام الجلسات فيتلخص في أنها كانت تعقد ثلاث مرات في الشهر، فيقرأ أحد الحجاب مشروع القانون الذي حضره مجلس الشيوخ ثم يسأل عن الذين يرغبون في المناقشة فيقف الخطباء واحدا بعد الآخر على منبر خاص ويوجهون كلامهم للجمعية وتؤخذ الأصوات بعد ذلك بوساطة رفع الأيدي؛ وكان المجتمعون يصغون إلى المناقشات بكل اهتمام كما أن الخطباء المفوهين مثل (بركليس) كان لهم أكبر التأثير على المجتمعين.

وخلاصة القول فقد كان أهالي أثينا يحكمون أنفسهم ويشرعون لأنفسهم ويعينون قضاتهم، ورغم أن هذا النظام كان فاسدا بعض الفساد لأنه أشرك العامة والدهماء في الحكم، إلا أنه جعل الأثينيين يحترمون الأغلبية في كل اجتماعاتهم.

وفي عهد "بركليس" قامت مدينة جديدة ذات معابد فاخرة وآثار عظيمة لتحل محل أثينا القديمة التي دمرها الفرس، وأفخم مبانيها (معبد البارثنون) العظيم الذي كان يتوج قمة الاكربوليس.

وقد حلى أفاريزه الحفار الشهير (فيدياس) ثم نقش عليه رسوما بديعة تمثل الحفلات الدينية الآثينيية.

وكان خارج المعبد تمثال الآلهة (أثينا) ربة الحكمة المصنوع من البرنز، ويبلغ ارتفاعه أكثر من ٧٠ قدما يراه الرائي من البحر بغاية الوضوح.

وفي داخل المعبد تمثال آخر لأثينا من صنع (فيدياس) محلي بالذهب والعاج، وهو أصغر من التمثال الخارجي بكثير، وكانت تزين منحدرات الأكربوليس تماثيل أخرى وآثاره كثيرة تمثل أقصى ما وصل إليه الرقي الفني في عهد "بركليس" وعلى السفح أيضا مسرح (ديو نيساس) الكبير الذي يسع ثلاثين ألف من المتفرجين، وهناك كان يجتمع الناس لمشاهدة التمثيل، ولا يفوتن القارئ أن "بركليس" كان يسمح للشعب دخول هذا المسرح وغيره مجانا فأدى هذا إلى تنور فكري عظيم، ومن أعظم المباني معبد التسيوم الشهير الذي لا يزال حافظا لرونقه.

ويمتاز عصر "بركليس" بنبوغ طائفة من المفكرين أهمهم "اسكلاس" الذي حارب في واقعة مراتون و "سوفوكليس" و"ايريبدس" وكلهم من مؤلفي الروايات التراجيدية "المآسي" ثم "اريستوفان" كاتب الروايات الكوميدية (الهزلية) ثم "فيدياس" المصور وهيرودوت المؤرخ وسقراط وأفلاطون الفيلسوفان، وغير هؤلاء ممن رفعوا رأس أثينا وجعلوها محط رحال العلماء وطلاب الفن والأدب وعشاق الطبيعة.

وخلاصة القول إن التاريخ يذكر لبركليس بكل تقدير جهوده في سبيل أثينا، فقد أصبحت في عهده مدرسة الشعب الهليني بأسره وكان لا يقل ثراؤها عن جمالها، فكانت ميناؤها مكتظة بالسفن التجارية، واشتهرت فوق

هذا بصناعة الأنية الجميلة والأكواب الخزفية التي كانت تصدرها لبلاد البحر المتوسط، كما أنها كانت تستورد الخشب والفاكهة والنبيذ المعتق من الجزر النائية، وكانت تجلب البخور من سوريا والبلح من فينيقيا والسجاجيد من قرطاجنة وورق البردي من مصر، وكانت تجبي المكوس الباهظة على كل هذه الواردات فامتلأت خزانتها وتمتع الشعب الأثيني برفاهية لم يشهد مثلها من قبل.



سوفوكليس

الفصل السادس

حروب البلوبونيز بين أثينا واسبرطة

أسباب هذه الحرب أن اسبرطة وحليفاتها كانت تحسد أثينا على قوتها واستئثارها بالزعامة، أضف إلى هذا اختلافهما في الجنسية، فأهل أثينا من قبائل الايونيين بينما الاسبرطيون من الدوريين، وأهم من هذا كله اختلافهما في الميول السياسية، فاسبرطة صديقة الأرستقراطية بينما أثينا تنادي بأنها حامية الديموقراطية.وكانت معظم ولايات البلوبونيز في صف اسبرطة، ثم إن جيوشها البرية كانت على جانب عظيم من القوة، وأخيرا انضمت إليها سيرا كوز بأسطولها.

وكان في صف أثينا معظم جزر بحر إيجا وعدد عظيم من مدن الساحل الإيجي، ثم كركيرا وبعض مقاطعات في غرب بلاد الإغريق، وكانت قوات أثينا البحرية على جانب عظيم من القوة، ولم يكن لها جيش بري قوي مثل جيش اسبرطة.كانت أثينا تملك أموالا طائلة حصلت عليها عن طريق الضرائب التي فرضتها على حليفاتها في حلف ديلوس، بينما كان حلف اسبرطة لا يملك من المال إلا القليل.

ورغم أن أثينا كانت مبتكرة تميل إلى التجديد وأن اسبرطة كانت جامدة لم تغير من أنظمتها العتيقة فقد كانت لإسبرطة ميزة هامة هي أن حليفاتها كن معها على قدم المساواة بينما كانت حليفات أثينا خاضعات لها.

وبدأت الحرب الأولى بين أثينا واسبرطة (سنة ٤٥٩ ق. م.) وبقيت أربعة عشر عاما كانت الحرب خلالها سجالا وأخيرا انتهت بهدنة مدتها ثلاثون عاما.

وحدث خلال الهدنة نزاع بين كورنث وإحدى مستعمراتها كركيرا، فتدخلت أثينا في هذا النزاع وساعدت كركيرا ضد كورنث، وهذا أدى إلى انضمام كورنث إلى اسبرطة ضد أثينا وقامت بذلك الحرب الثانية التي دامت سبعا وعشرين سنة وانتهت بتحطيم الإمبراطورية الأثينية، ولهذه الحرب ثلاثة أدوار:

تعتبر اسبرطة البادئة بالعدوان، فقد كانت تغير على أتيكا المحيطة بأثينا وتهب محصولها وتوقع الأذى بأهلها، فأقام (بركليس) سورا حول أثينا يحتمي بها أهلها، وأرسل في نفس الوقت أسطولا أثينيا عطل تجارة كورنث، ولما تجمع أهالي أثينا داخل السور تفشى فيهم طاعون مروع قضى على عدد عظيم من خيرة شبابهم، وكان (بركليس) نفسه ضحية هذا الوباء.

وقام بالأمر في أثينا بعده (نسياس) الذي عقد مع الأعداء سنة ٤٢١ صلحا سمي باسمه، وأهم شروطه أن يرد كل فريق إلى الآخر جميع الأسرى والأماكن التي تم الاستيلاء عليها في الحرب، وبذلك انتهى الدول الأول.

ولم تنفذ شروط الصلح كلها لأن كل فريق كان يرغب في القتال، وظهر في أثينا زعيم جديد يدعى (الكبيادس) ابن أخي (بركليس) فحرض قومه على القتال، وحدث أن استنجدت إحدى المدن الإيطالية بأثينا ضد سيرا

كوز، فأرسل (الكبيادس) أسطولا ضخما إلى سيراكوز عاصمة صقلية التي كانت حليفة اسبرطة، وبذلك قامت الحرب من جديد (سنة ٤١٥ ق. م).

واستطاع الأسبرطيون وأهالي سيراكوز أن يوقعوا بأسطول أثينا هزيمة شنيعة في مياه سيراكوز ثم أنهم أسروا عددا عظيما من الأثينييت باعوهم في أسواق الرقيق، وغضب الشعب في أثينا على (الكبيادس) فهرب والتجأ إلى أعدائه الأسبرطيين.

ولما رأى الفرس ما حل بأثينا تحالفوا مع (ليساندر) ملك اسبرطة وتمكنت جيوش الفرس والأسبرطيين المتحالفة أن تحطم أسطول أثينا سنة ٤ ٤ ق. م، ودخل المنتصرون أثينا وهدموا أسوارها ومبانيها العظيمة، وبذلك سقطت الإمبراطورية الأثينية وآلت الزعامة إلى اسبرطة.

ولم تدم زعامة اسبرطة طويلا فقد قامت ضدها طيبة وأسقطتها واستأثرت بالزعامة على مقاطعات الإغريق سنة ٣٧١ ق. م وبقيت الحال كذلك حتى سقطت طيبة وضاعت زعامتها سنة ٣٦٢ ق. م وهكذا فشل الإغريق في إقامة شعب موحد رغم ما كانوا عليه من التفوق في الفنون وأنظمة الحكومة والنظريات السياسية.

الفصل السابع

ظهور مقدونيا

في الوقت الذي كانت فيه ولايات البلوبونيز تتطاحن في الجنوب كانت دولة مقدونيا آخذة في أسباب الظهور والقوة فكان ملوكها يدخلون حضارة اليونان في بلادهم ويعملون جهدا استطاعتهم على أن يكونوا أصحاب الزعامة بين ملوك اليونان.

وأهم هؤلاء الملوك "فيليب" المقدوني الذي قضى ثلاث سنوات من شبابه في طيبة تعلم خلالها تعبئة الجيوش وتسيير الشؤون السياسية، ولم يلبث بعد عودته إلى مقدونيا أن ألف جيشا منظما لم تر بلاد اليونان مثله، ثم بدأ يوسع ملكه حتى دانت له بلاد الإغريق من أقصاها بعد أن انتصر في وقائع كثيرة أهمها واقعة قيرونة (٣٣٨ ق. م).

ولما رأى (ديمو سينيس) أخطب خطباء الإغريق أن (فيليب) يرغب في إذلال الإغريق وإخضاعهم لمقدونيا وقف في وجهه وبذل قصارى جهده في سبيل إيقاف التوسع المقدوني، وظل يكافح ضد (فيليب) أربعة عشر عاما لم يتأثر خلالها بالتهديد والوعيد، ولم تبعده عن غايته الرشوة والوعود الخلابة، ولكن عندما انتصر (فيليب) أخيرا في واقعة قيرونة الشهيرة التي حضرها (ديمو سينيس) فر من وجه (فيليب) وعاش في إحدى الجزر.

وقد وصل إلينا من خطبه ستون تعتبر من أهم النماذج الخالدة في أدب الإغريق.وكان فيليب يرغب في محاربة الفرس والانتقام منهم من أجل غزوهم لبلاد اليونان في عهد (دارا) وخلفه (اجزر سيس) وبدأ يعد المعدات لحملة شديدة يقضي بها على الفرس القضاء الأخير، ولكن الأجل لم يمهله حتى يتم مشروعه هذا فمات عام ٣٣٦ ق. م. بطعنة من يد أحد رعاياه وبموته تولى حكم الإغريق ابنه (الإسكندر).

تولى الإسكندر وهو في العشرين من عمره، وكان شابا شجاعا ظهرت مهارته الحربية في واقعة قيرونة التي سبق ذكرها، وظن الإغريق أنه لا يستطيع حكم مملكة (فيليب) فثاروا عند ما تولى عليهم، ولكن الإسكندر أظهر نبوغه في إخماد نار الثورة قبل أن يقوى لهيبها، وكان جزاء مدينة طيبة زعيمة الثورة أن خربها الإسكندر تخريبا تاما.

وفي عام (٣٣٤ ق. م) عبر الإسكندر بوغاز الدردنيل على رأس جيش مدرب تعداده ٣٥ ألف جندي والتقى بجيوش الفرس وبينهم بعض الإغريق المرتزقين عند نهر غرانيق، وهناك هزمهم الإسكندر هزيمة حاسمة كانت نتيجتها أن أصبحت آسيا الصغرى كلها تحت أقادمه، ثم توغل في البلاد حتى قابل (دار الثالث) ملك الفرس على رأس جيش عظيم عند (إسوس) الواقعة في سهل صغير في الركن الشمالي الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، وهناك انتصر الإسكندر نصرا مبينا عام ٣٣٣ ق. م وفي هذه الموقعة فر

(دارا) وذبح معظم جنده وتفرق من نجا منهم، أما أسرة (دارا) فقد وقع معظم أفرادها في يد الإسكندر.

بعد هذا تحول الإسكندر نحو الجنوب واستولى على دمشق وموانئ فينيقيا ولم يجد مقاومة تذكر إلا في ميناء صور القديمة التي دام حصارها سبعة أشهر، وأخيرا سقطت في يد الإسكندر بعد قتال عنيف دافع فيه الصورويون عن بلدهم دفاعا مجيدا، ولما دخلها أسر أهلها وقتل منهم عددا عظيما.

وكانت نتيجة هذا الفتح أن أرسل (دارا) رسله إلى الإسكندر يطلب الصلح ويظهر له الخضوع، وعرض عليه أن يتزوج ابنته وأن يأخذ نصف الإمبراطورية الفارسية مهرا لها، فرفض الإسكندر بإباء وعزة نفس، حين ذاك قال (بارمينو) أحد قواد الإسكندر (إني أقبل الصلح على هذه الشروط لو أنني كنت الإسكندر) فأجابه الإسكندر على الفور (وإني لا شك أقبل لو أنني كنت بارمينو).

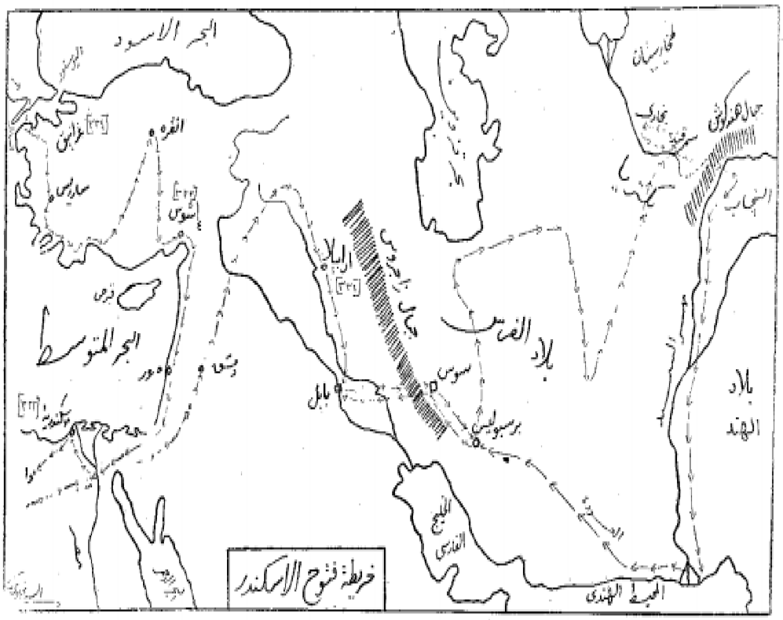
ومن فينيقيا سار الإسكندر نحو مصر فلم يبق أية مقاومة بل بالغ أهلها في الترحيب به، ويرجع هذا إلى أنهم كانوا يكرهون الفرس ويرغبون في التخلص من حكمهم لما أصابهم من عسفهم وظلمهم في الماضي.

وكان الإسكندر يحترم معبودات المصريين ويقدم لهم الضحايا والقرابين، ومن أهم أعماله الخالدة بمصر أن أسس عام ٣٣٢ ق. م مدينة الإسكندرية عند مصب الفرع الغربي للنيل، ولم يكن يتنبأ بأنها ستصبح أعظم مدينة في العالم بعد روما، وربما كان غرضه من تأسيسها أن يصل مصر ببقية أجزاء

إمبراطورتيه بإيجاد عاصمة بحرية تجارية على ساحل البحر المتوسط يسكنها قوم خليط من الإغريق والمصريين.

بعد هذا سار الإسكندر إلى معبد أمون في واحة سيوة على مسيرة خمسة أيام في الصحراء اللوبية الغربية، وهناك لقبه كبير الكهنة (ابن أمون) وتنبأ له بأنه سيفتح الدنيا، فأعتقد الإسكندر أنه حقيقة من نسل الآلهة وبدأ يطلب من رعاياه أن يعبدوه.

وخرج الإسكندر من مصر متوجها نحو قلب الإمبراطورية الفارسية حيث كان ينتظره (دارا الثالث) على رأس جيش كثيف، فقد كانت جيوش الفرس تربو على قوات المقدونيين أكثر من عشرين مرة، ولكن كثرة العدد لم تغن شيئا بجانب مهارة الإسكندر وحسن تنظيم جيشه، فأنهزم (دارا) وفي من الميدان ورحب البابليون بالإسكندر واستقبلوا جنده أحسن استقبال، ومن بابل عبر الإسكندر جبال (زاجروس) ودخل بلاد الفرس نفسها واستولى على عاصمتهم (شوس) بما فيها من كنوز الذهب والفضة والأحجار الكريمة التي قدرت قيمتها بما يقرب من ثلاثين مليونا من الجنيهات.



وبعد أن استراح الإسكندر شهورا قليلة تتبع (دارا) كي يرغمه على التنازل عن العرش، إلا أن (دارا) قتل قبل أن يقبض عليه الإسكندر فسار جيش المقدونيين حتى أفغانستان الحالية ومنها دخل سمرقند وبخاري، وأخيرا جاوز بكتيريا إلى حدود الهند فعبر جبال هندكوش واخترق إقليم البنجاب؛ وهناك امتنع رجال الإسكندر عن التقدم أكثر من هذا رغم الحاجة، فعاد بهم عن طريق نهر السند حتى وصل إلى مصبه وشاهد مياه المحيط الهندي، ويعتبر الإسكندر أول من كشف مجرى هذا النهر منذ أكثر من ألفي سنة ومن مصب السند سار نحو (سيس) عاصمة فارس ومنها إلى بابل وكان قد أتم المعدات لغزو بلاد العرب، ولكن أصابته حمى وهو في بابل قضت على

حياته وهو في الثانية والثلاثين في (يونيه ٣٢٣ ق. م) وبموته فاضت أعظم روح عرفها التاريخ القديم.

كان يرمي الإسكندر إلى صبغ آسيا بالصبغة الإغريقية، ولقد نجح في هذا إلى حد كبير، فقد كان أفراد الأسرات الحاكمة يتخاطبون باللغة الإغريقية من الهند شرقا إلى إيطاليا غربا، وانتشرت الثقافة الإغريقية في الشرق واتصل التجار الإغريق بالهند ومن ثم عرفوا الحرير الصيني الذي كانت تجارته عقدة الاتصال بين الصين والبلاد الإغريقية.

أما نتائج فتوح الإسكندر في بلاد الإغريق نفسها فقد كانت سيئة لأن عددا عظيما من سكان البلاد نزح إلى الأقاليم الشرقية واستوطنها، وهذا أدى إلى سقوط هيبة المدن الإغريقية وضياع أهميتها، فحلت الإسكندرية محل أثينا وأصبحت مهبط العلوم والمعارف الإغريقية.

الفصل الثاني عشر

قيام دولة البطالمة

تنبأ الإسكندر بمصير إمبراطورتيه فقال قبل وفاته كلمته الخالدة "إن أصدقائي سيحتفلون بتشييع جنازتي احتفالا دمويا" ومعنى هذا أنهم سيتنازعون على تقسيم أملاكه بعد موته.

وترك الإسكندر من بعده أخا غير شقيق يدعى (أريدوس) وكان له من زوجته (بارسينا) ابن يدعى (هرقل) مات في الوقت الذي كانت فيه زوجته (روكسانا) في أواخر أشهر الحمل، فاتفق مجلس الضباط على أن يكون العرش لأخيه (أريدوس) على شرط أنه إذا ولدت روكسانا ولدا فإنه يشترك مع عمه في الحكم واتفق الرأي كذلك على أن يكون (برديكاس) أحد قادة الإسكندر وصيا على ابنه الملك الصغير.

ثم كان أن وضعت (روكسانا) ولدا سمي (الإسكندر الصغير) فأعلن ملكا بالاشتراك مع عمه أريدوس، ولكن لم يكن لا يهما من الملك أكثر من اللقب، أما السلطة الفعلية فكانت موزعة بين الأشراف والقادة الذين قسموا إمبراطورية الإسكندر فيما بينهم، وفي هذا التقسيم كانت مصر وما يلحق بها من فتوح الإسكندر في الصحراء اللوبية والعربية من نصيب القائد (بطليموس) بن (لاجوس) مؤسس دولة البطالمة، وظل (بطليموس) يعتبر

نفسه ملكا على مصر إلا سنة ٣٠٥ ق. م أي في العام السابع عشر من موت الإسكندر.

ونشأ بطليموس مع الإسكندر في قصر فيليب لأن أمه كانت في خدمة الملك، ومن هنا يعتبره الكثيرون من نسل فيليب، أما أبوه الشرعي فمقدوني من أصل غير معروف.

وقد استهل بطليموس حكمة بنقل جثة الإسكندر من بابل إلى مصر وذلك تفانيا في الإخلاص لسيده الذي صحبه من قبل في حملاته الآسيوية والذي قضى معه معظم حياته، على أن برديكاس كان يرغب في نقلها إلى مقدونيا ومن أجل هذا قام بينه وبين بطليموس نزاع طويل انتهى بانتصار الأخير، ويرجح علماء الآثار أن بطليموس دفن جثة الإسكندر في الموضع المعروف الآن بقبر النبي دانيال في الإسكندرية، وقد بدأ التنقيب عن المقبرة في أوائل عام ١٩٣٠ على أمل العثور على التابوت الذهبي أودعت فيه الجثة، ولكن الأستاذ (برتشيا) الذي كان أمين متحف الإسكندرية وأعضاء اللجنة المعهود إليهم التنقيب عن قبر الإسكندر عدلوا في أواخر شهر يوليو سنة ١٩٣١ عن البحث لأنهم تأكدوا أن هذا البحث – فضلا عن أنه يستنفذ جهدا عظيما ومالا طائلا – عديم الفائدة، وذلك لأن المصادر التاريخية التي يعتمد عليها في البحث عن المكان الذي دفن فيه الإسكندر غير متفقة على تعيين مكان دفن فيه أو حفظت به جثته في مدينة الإسكندرية.

ولم يلبث بطليموس الأول بعد هذا أن وسع أملاكه بالاستيلاء على سوريا وبيت المقدس وبلاد فينيقيا عام ٣٢٠ ق. م ثم استولى على جزيرة قبرص فأصبحت لمصر السيادة على البحر المتوسط.

ويتميز الشطر الأخير من حياته بانصرافه إلى ترقية الشئون العلمية والأدبية، فأسس في الإسكندرية أكاديمية أسمها (دار التحف) كان يجتمع فيها العلماء والفلاسفة الذين كرسوا حياتهم لخدمة العلم، ثم ألحق مكتبة فاخرة جمع لها الكتب من أنحاء العالم المعروف حتى بلغ عدد مجلداتها في عهد ابنه بطليموس الثاني أكثر من ١٠٠٠٠٠ وفوق اهتماه بتشجيع العلماء فقد كان نفسه مؤلفا وضع كتابا في تاريخ حروب الإسكندر كان حجة في الرواية، إلا أنه ضاع ولم يصل إلى أيدينا منه شيء.

هذا وقد كان يحترم ديانة المصريين ويقدم القرابين للآلهة، وينسب له أنه أقام معبدا فخما بالإسكندرية أسماه معبد (السرابيون) نسبة إلى الإله (سرابيس) الذي نقل تمثاله من بلاد بنت، وهذا المعبد يفوق في جماله معابد العالم كلها إلا معبد الكابتول في روما، ثم ألحق بالمعبد مكتبة أخرى تابعة لمكتبة الإسكندرية الكبرى.

وفي عام ٢٨٥ ق. م نزل بطليموس عن العرش لأبنه بطليموس الثاني الملقب بفيلادلف. ثم عاش بعد هذا الحادث عامين ومات عام ٢٨٣ ق. م في الرابعة والثمانين من عمره.

وبطليموس الأول أكفأ وأعدل وأعظم ملوك البطالسة؛ ففي خلال الأربعين عاما التي حكمها بعد وفاة الإسكندر جعل مصر تفوق كل ممالك الدنيا المعاصرة له، وكان محبوبا من رعيته محبا للبساطة في حياته الخاصة لدرجة أنه كان يخالط الناس ويتناول معهم الطعام في بيوتهم ويدعوهم إلى مائدته، وكان يعتقد أن الملك العظيم هو الذي يجلب الغنى والرفاهية لشعبه لا لنفسه.

وكانت سياسة بطليموس الثاني الملقب "فيلادلف" ترمي إلى جعل الإسكندرية أفخم مدينة في العالم ووسطا للثقافة، ففي عهده عظم شأن المكتبة والأكاديمية وأصبحتا محط رحال العلماء من كل نواحي الدنيا، ومن أهم المشروعات العلمية التي تنسب إليه أن أمر تتألف لجنة مكونة من ٧٢ عالما عبرانيا نقلوا التوراة من العبرانية إلى الإغريقية، ثم أمر الكاهن المصري مانيتون بتدوين تاريخ الأسرات المصرية القديمة.

وأرسل فيلادلف رسله إلى الغرب يخطب صداقة الجمهورية الصغيرة التي كانت آخذة إذ ذاك في أسباب الظهور على ضفاف التيبر، تلك هي جمهورية روما، فرد عليه مجلس الشيوخ الروماني بالقبول وعقدت بين مصر وروما معاهدة صداقة من أهم نتائجها أن ظلت مصر محايدة طوال الحروب البونية، وأن تجولت الأساطيل المصرية التجارية في غرب البحر المتوسط واتصلت بروما بعد أن كانت لا تجاوز الجهات الشرقية.

أما اهتمامه بالتجارة فقد كان عظيما جدا، فهو الذي أعاد حفر خليج سيزوستريس وأمن طريق القوافل بين النيل والبحر الأحمر عن طريق وادي الحمامات، ثم أقام في الإسكندرية "منارة فاروس" التي تعد من عجائب الدنيا السبع، كان موقعها في المكان المسمى الآن "بحصن قايتباي"، ولا تزال حتى اليوم كتل صخرية من أنقاض هذا البناء العظيم ملقاة على الشاطئ تغسلها مياه البحر المتوسط، أما بقية البناء فقد دمرته هزة أرضية عنيفة عام ٢٠٧ ق. م.

لم تكن فائدة المنارة قاصرة على هداية السفن ليلا بل تعدت هذا إلى التنبيه عند اقتراب أية سفينة من الميناء وذلك بواسطة المرآة العجيبة التي تعكس أشعة الشمس نهارا وأشعة المصباح ليلا إلى مسافة تزيد عن ثلاثين ميلا في البحر وعلى ضوء هذه المرآة كانت ترى السفن الخارجة من الميناء والقادمة نحوها.

ويقال أنها كانت بناء هائلا من الحجر الأبيض الجميل مكونا من أربع طبقات يبلغ ارتفاعها في مجموعها ٥٠٠ قدما وأن قمتها كانت على شكل قبة ينبعث منها الضوء بقوة غريبة وأنها بنيت على يد مهندس ماهر يدعى "سوستراتاس"

ومن أهم الآثار التي تنسب إلى فيلادلف جزء من (معبد فيله) المعروف بمعبد (أنس الوجود) المقام على جزيرة قرب الجندل الأول

وبالاختصار فقد عظم شأن مصر في عهد فيلادلف وانتشرت تجارتها في البحر المتوسط واتصلت كذلك ببلاد العرب والهند والحبشة عن طريق البحر الأحمر، وأصبحت الإسكندرية بلد التجارة والثقافة والفلسفة وزاد في عهده عدد الإغريق الذين يستوطنون مصر وكان فيلادلف يشجعهم على الإقامة بها فاقطعهم أرضا قرب الفيوم وبموته عام ٢٤٧ ق. م ترك العرش الأكبر أبنائه بطليموس الثالث.

وبدأ بطليموس الثالث (٢٤٧ – ٢٢٢) ق. م حكمه بغزو سوريا لينتقم لمقتل أخته الأميرة "برنيس" التي كانت زوجة ملك سوريا، وبعد أن تم له إخضاعها تقدم حتى بابل وسيس عاصمة الفرس فاستولى عليها جميعا وظل يتوغل شرقا حتى حدود بكتريا والهند وأخيرا عاد إلى مصر يحمل الغنائم العظيمة التي بينها كثير من التماثيل المصرية التي كان قد نقلها قمبيز إلى بابل وبلاد فارس.

أما في إفريقيا فقد استولى على برقة أو طرابلس الحالية، وفي السنوات الأخيرة من حكمه أخضع القبائل النوبية على الحدود الجنوبية لمصر وتقدم حتى ميناء "أدول" على البحر الأحمر.

ولكن هذه الأملاك الواسعة لم تلبث أن ضاعت بعد بطليموس لضعف مركز مصر الحربي في عهد الملوك الذين جاءوا من بعده.

ومن آثاره الهامة "معبد أدفو" وهو لا يزال حافظا لرونقه حتى اليوم.

ويعتبر عهد بطليموس الرابع (٢٢٢ – ٢٠٥ ق. م) بدء اضمحلال مصر، ويتميز بسلسلة من الجرائم الشنيعة فقد أعدم أمه "برنيس" وأخاه "ماجوس" وعمه "ليسيما كوس" وانغمس بعد هذا في حياة فاحشة خليعة تاركا شؤون الدولة في يد أحد وزرائه، فانتهز ملك سوريا هذه الفرصة واستولى على معظم أملاك مصر في سوريا وفلسطين وبقى بطليموس منصرفا عن صالح البلاد حتى مات عام ٢٠٥ ق. م.

ومع كل هذا فلم يكن أقل من أسلافه في تشجيع الحركة الأدبية وتقريب العلماء والفلاسفة والأدباء وبموته تولى ابنه بطليموس الخامس وهو طفل في الخامسة من عمره.

الفصل الثالث عشر

علاقة الرومان ببقية ملوك البطالسة

عرفنا أن العلاقة بين مصر وروما في عهد فيلادلف كانت قاصرة على تبادل المتاجر وأن روما لم يكن لها أي تسلط على مصر وإنما كانت الصداقة بينهما ترتكز على أساس المساواة.وكان بطليموس الرابع غير ساهر على مصالح بلاده فضاعت أملاكه في سوريا وترك ابنه بطليموس الخامس في الخامسة من عمره، وهذا جعل أنطيوك ملك سوريا وفيليب ملم مقدونيا ينتهزان الفرص ويتفقان على تقسيم أملاكه الأسيوية، وتم لهما بالفعل الاستيلاء على بعض أملاك مصر ولكن روما تدخلت في الأمر وأرغمتهما على إخلاء الأماكن التي تم فتحها، وبذا أصبحت روما حامية مصر.

وفي عهد بطليموس السادس هاجم أنطيوك الثالث ملك سوريا مدينة الإسكندرية إلا أنه رجع عنها بأمر "بوبيلاس" السفير الروماني في الإسكندرية.

وفي عهد بطليموس السابع والثامن والتاسع والعاشر زادت سلطة روما في مصر وعظم تدخلها في شئونها وتكررت زيادة السفراء والعظماء من الرومان لها.

وأتفق بطليموس الحادي عشر المبالغ الطائلة في روما كي يحصل على اعتراف مجلس الشيوخ الروماني به ملكا على مصر ولكنه كان قد أثقل كاهل

المصريين في سبيل الحصول على المال فقاموا بثورة هائلة في الإسكندرية وأسقطوه فذهب بنفسه إلى روما وطلب المعونة وأعيد إلى عرشه وحكم حتى مات عام (٥١ ق. م) وترك وصية مؤداها أن يتولى عرش مصر من بعده ابنه بطليموس الثاني عشر بالاشتراك مع أخته كليوباترا وترك من هذه الوصية صورة في الإسكندرية وأرسل أخرى إلى روما كي تتولى تنفيذها.

وحاصل ما تقدم أن ضعف ملوك البطالسة هو العامل الأكبر في تطور العلاقة بين روما ومصر، فبعد أن كانت في أول أمرها علاقة صداقة ومساواة أصبحت روما فيما بعد حامية مصر وأصبح ملوك مصر مدينيين بعروشهم وتيجانهم لروما، وأخيرا انتهى الأمر باستيلاء الرومان على مصر وضمها إلى أملاكهم عام ٣١ ق. م.

تولت (كليوباترا) حكم مصر تنفيذا لوصية أبيها بطليموس الحادي عشر عام (٥١ ق. م) وكانت في السابعة عشرة وأشركت معها في الحكم أخاها بطليموس الثاني عشر وكان غلاما في العاشرة ولذا عين عليه مجلس من الأوصياء.

ولما بلغ بطليموس الرابعة عشرة أو عز إليه أثنان من الأوصياء هما (بوتيناس) و (أخيلاس) أن ينفرد بالحكم وشجعاه على هذا فطرد أخته كليوباترا، ولم تلبث هي أن جمعت جيشا هاجمت به مصر.

وتصادف أن قدم إلى مصر في ذلك الوقت (يوليوس قيصر) القائد الروماني يجد في اللحاق بعدوه ومنافسة (بومبيوس) فأعجب بجمالها

وفصاحتها وأدبها، وعلى يديه تم الصلح بينها وبين بطليموس على أن يتزوجها ويشركها معه في حكم مصر.

ولكن هذه التسوية لم ترض القواد المصريين فقاموا ضد قيصر وانضم إليهم بطليموس، ولكن قيصر هزمهم بعد أن وافاه المدد من روما، وفي أثناء القتال غرق بطليموس فخلا الجو لكليوباترا وتولت العرش وأشركت معها أخاها الأصغر (بطليموس الثالث عشر) الذي يروي أنها قتلته عام ٤٣ ق. م ولما ذهبت كليوباترا إلى روما لتقديم فروض الشكر لقيصر بنى لها قصرا فخما وعاش معها حتى قتل عام (٤٤ ق. م).

وفي أثناء إقامتها في روما رزقت منه ولدا يدعى قيصرون، وبعد وفاة قيصر عادت إلى مصر.

كان بروتس قاتل قيصر له حزب أهم أعضائه كاسياس وكان في روما حزب آخر يرغب في الانتقام لمصرع قيصر على رأسه القائد أنطونيو والشاب اكتافيو حفيد قيصر الذي كان إذ ذاك في الثامنة عشرة، فاجتمع جنود قيصر حول أنطونيو واوكتافيو ودارت بين الطرفين حرب انتصر فيها اتباع قيصر وهزم بروتس عام (٤٢ ق. م) فانتحر هو وزميله كاسياس.

واتفق المنتصرون على أن يحكم أنطونيو أملاك الدولة الرومانية في الشرق وأن يبقى اكتافيو في روما فذهب أنطونيو إلى سوريا ومن هناك أرسل يطلب كليوباترا لسؤالها عن أمور نسبت لها منها مساعدة برروتس وحزبه أثناء الحرب، فأعدت سفينة فخمة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت من

آلات الطرب والزينة والجواري وأسباب الترف، ثم حملت معها حليها ونفائسها وتوجهت نحو كليكيا في شمال سوريا.

وكانت "كليوباترا" إذ ذاك في الثامنة والعشرين وقد بلغت منتهى ما يصل إليها الكمال الجسماني. أضف إلى هذا مواهبها النادرة وما كان لها من المقدرة الكلامية، فما كاد يراها "أنطونيو" حتى بهره جمالها ووقع في حبالها وأصبح أسير هواها ونسى واجبه العسكري وفضل أن يعيش معها في الإسكندرية معرضا عن زوجته "أوكتاف" شقيقة زميله "أكتافو".

وغضب "أوكتافيو" لمسلك أنطونيو وأثار ضده الشعب الروماني فهب الجميع للانتقام منه وغسل الإهانة التي لطخت شرف روما الحربي، وأعلن مجلس الشيوخ الروماني الحرب على كليوباترا لأنها تآمرت مع أنطونيو على إسقاط الإمبراطورية الرومانية.

فأعدت جيشا وأسطولا خرجت بهما مع حبيبها أنطونيو لملاقاة الأسطول الروماني في مياه البحر المتوسط، فتقابل الأسطولان عند أكتيوم على الساحل الغربي لبلاد الإغريق، وهناك تفرق الأسطول المصري وفرت كليوباترا إلى مصر وأعقبها أنطونيو فأنضم معظم الجيش المصري إلى اكتافيو، ولم يكتف الأخير بهذا بل تبعها إلى الإسكندرية.

وحاولت كليوباترا عبثا أن تكسب قلب (اكتافيو) ولما لم تجد إلى استمالته سبيلا أرسلت إلى أنطونيو تخبره بأنها تفضل الانتحار فظنها قد

ماتت وعجل بالانتحار، ولم تلبث كليوباترا بعد قليل أن صنعت بنفسها ذلك الصنيع، وبموتها فقدت مصر استقلالها وأصبحت ولاية رومانية.

كانت الأسرة الحاكمة إغريقية الأصل، ولكن ليس معنى هذا أن مصر كانت تحكم حكما أجنبيا، فالبطالسة رغم أنهم من الإغريق فقد تمصروا واحترموا ديانة المصريين واندمجوا في الشعب المصري وظهروا في الحفلات بزي فراعنة مصر الأقدمين، ولذا تعتبر مصر في أيامهم في مصاف الدول المستقلة.

ونشطت العلوم والآداب وأصبحت دار التحف محط رحال الطلاب والعلماء من كل الدنيا، وأهم علماء الإسكندرية (إقليدس) صاحب النظريات الهندسية التي يدرسها التلاميذ في مدارسنا اليوم، ثم (أرشميدس) العالم الطبيعي ومن بينهم (أراثو ستين) الذي كان رئيسا لمكتبة الإسكندرية، وهو عالم ضليع له مؤلفات في الجغرافية والفلك والهندسة، وهو أول من اهتدى إلى معرفة طول محيط الأرض ووضع فوق هذا تعديلا لخريطة الدنيا، ومن بين العلماء النابهين (ديونيسوس) الذي وضع قواعد الأجرومية الإغريقية و (بطليموس) الجغرافي الشهير، والمهم في هذه الحضارة العلمية أنها كانت ذات صبغة إغريقية محضة.

ومن أهم آثارهم معبد أدفو الذي بناه بطليموس الثالث وعبد فيلة الذي بنى الجزء الأعظم منه فيلادلف ومعبد دندره الذي أقامته كليوباترا وكلها على الطراز المصري القديم ثم بعض التماثيل المحفوظة في متحفي القاهرة والإسكندرية.

الكتاب الثالث

الرومان

الفصل الأول

كيف نشأت روما

روما عاصمة إيطالية، وإيطاليا إحدى أشباه الجزر الثلاث التي يتكون منها جنوب أوروبا والتي تغسل شواطئها مياه البحر المتوسط وتحدها الآن من الشمال جبال اللب، ولكن في الوقت الذي تأسست فيه روما عام (٧٥٣ ق. م) كانت المنطقة الواقعة بين جبال الألب وجبال أبنين، والتي نسميها الآن سهل لمبارديا تابعة لقبائل الغالة وكانت تسمى (غاليا) وكانت تسكن قبائل الأتروريون من أقوى الأجناس في شبه الجزيرة كلها، وسميت بلادهم (تسكانيا) نسبة إليهم، وفي جنوب قبائل الغالة و الأتروريون كان يسكن الإيطاليون وأهم أجناسهم "اللاتين" الذين سكنوا في السهل الواقع جنوب نهر التيبر، وكانوا يفلحون الأرض ويعيشون في قرى متفرقة تكاد تكون مستقلة، ولكنهم كانوا يجتمعون في مناسبات خاصة فيكونون باجتماعهم ما يسمى بالعصبات، وكان يسكن في "سيرا كوز" بجزيرة صقلية جماعات من الإغريق وكان إلى جانب القرطاجيون الذين أسسوا لهم مستعمرة في صقلية تشمل الأجزاء الغربية من هذه الجزيرة.

وحدث عام ٧٥٣ ق. م أن أقام اللاتين مستعمرة على نهر التيبر كي تحمي النهر من غارات الأتروريين أطلقوا عليها روما وسرعان ما عظم شأنها لمناعة موقعها ولأهميتها من الناحية التجارية.

وأسست روما على ضفتي التيبر على بعد خمسة عشر ميلا من مصبه، وكانت في أول أمرها تتكون من بعض بيوت قليلة على تل صغير بجانب النهر حولها سور بسيط، ولكن بزيادة عدد السكان ضمت إليها تلال أخرى وجعل السور حولها كلها، ولم يمض مائة وخمسون عاما من تأسيسها حتى شملت ضمن حدودها سبعة تلال ومن ثم سميت (مدينة التلال السبعة).

وكان لموقع روما الجغرافي أكبر الأثر في نموها وتقدمها فلديها من كل النواحي الفراغ الذي يسمح لها بتوسيع حدودها تبعا لزيادة عدد سكانها، وقد جعلها نهر التيبر على اتصال مباشر بالبحر حيث نشأت لها هناك ميناء تجارية هامة اسمها (أوستيا – Ostia) أضف إلى هذا أن توسط روما في شبه الجزيرة أكسبها موقعا حربيا فائقا، ولا يصح أن نغفل أن موقع روما في وسط إيطاليا – تلك البلاد السهلة المتصلة الأجزاء – يختلف عن موقع أثينا في بلاد الإغريق ذات الفواصل الطبيعية كالجبال والخلجان، فروما كانت على التيبر في مكان حصين ولكنها برغم ذلك مكشوفة معرضة للغزو ولذا عاش أهلها على أهبة الحرب في كل وقت، ومكنتهم مقدرتهم الحربية فيما بعد من التغلب على قبائل اللاتين ومن ثم تغلبوا في شبه الجزيرة بأسرها، ومما هو جدير بالذكر هنا أن روما تقع على سهل له نصيب وفير من الخصب، وهذا ساعد على أن تقوم فيها بيئة نشيطة تفلح الأرض وتستثمرها، ثم أدى نشوء البيئة الزراعية إلى قيام جماعة مستقرة لها حكومتها وقوانينها وصناعاتها.

كانت حكومة روما في أول الأمر على جانب عظيم من السذاجة فكانت تتألف روما من عدة أسرات لكل واحدة رئيسها، وكان يجتمع رؤساء الأسرات أو الآباء (البطارقة) للتشاور في الشؤون العامة في مجلس الشيوخ أو "السناتور" وكان الملك يرأس اجتماعات الشيوخ، ونستنتج من هذا كله أن حكومة روما كانت ملكية بطريركية شبيهة بالملكيات الصغيرة التي جاء وصفها في قصائد شاعر الإغريق "هوميروس".

وأول ملوك عرفهم التاريخ ممن حكموا روما كانوا من الأتروربيين ثم ظلت الحكومة الملكية حتى عام (٥١٠ ف. م) حين أستبد أحد الملوك المسمى "تاركوين" فثار الشعب في وجهه وطرده وأسقط الملكية وأحل محلها الحكم الجمهوري.

وكانت السلطة التشريعية في ظل الجمهورية مودعة في أيدي اثنين من القناصل تنتخبهم الجمعية العمومية للشعب لمدة سنة واحدة وكانت الجمعية تبحث المقترحات التي تقدم إليها، أما مجلس الشيوخ فكان يضم المسنين من أشراف الأسرات الكبيرة؛ وعمله قاصر على تقديم رأيه للقنصلين ولكن ليس له أن يقيدهما بتنفيذه.

والغرض من وجود القنصلين ألا يستأثر أحدهما بالسلطة، ولكن وجودهما أدى إلى تعطيل الأعمال وخصوصا حينما تكون البلاد أمام خطر أجنبي، لهذا فكر الرومان في إيجاد منصب يسمى (الديكتاتورية) يعطي

صاحبه مطلق التصرف في شؤون الدولة بمفرده في أوقات الخطر، ولا يسمح له بالبقاء في منصبه أكثر من ستة أشهر.

الفصل الثاني

الديانة الرومانية

أخذ الرومان عن الإغريق تعدد الآلهة وطرق إقامة الشعائر الدينية، فقد شاعت الأساطير الإغريقية بين الفلاحين الرومان واعتقدوا بقدم آلهة الإغريق وبأنهم أسلاف آلهتهم الجدد، ولذا نجد الرومان قد أخذوا آلهة الإغريق ووضعوا لهم الأسماء الجديدة وأحاطوهم بنفس الأساطير التي رويت عن آلهة الإغريق الأقدمين، ثم أخذوا عنهم كذلك عبادة النار المقدسة والموتى من أجدادهم وقوى الطبيعة كالماء والهواء والقوى النفسية والعواطف كالحب والسلام والنصر والرحمة والعدل والحظ، وجعلوا لكل منها إلها خاصا.

وأهم آلهة الرومان (جوبتر) إله السماء الأعظم ورب الأرباب و(مارس) إله الحرب وسمى شهر مارس نسبة إليه، و(يينو) حامية النساء وربة الزواج والولادة و(مينرفا) ربة الحكمة، و(فستا) ربة التدبير المنزلي وحامية الحياة العائلية، و(كيريس) ربة الزرع والحصاد و(مركير) رسول الآلهة ورب التجارة، و(فولكان) إله النار والصناعات المعدنية وغير هؤلاء آلهة كثيرون، وكانت روما تحت حماية الآلهة جميعا وخصوصا (جوبتر ويينو ومينرفا) وكان الكابتول هو المقر الرئيسي لعبادتهم.

وكان خيال الرومان أقل خصبا من خيال الإغريق الذي خلق الأساطير الرائعة التي لا تزال من أجمل القطع الفنية في تاريخ الوجود.

ويمتاز الرومان بأنهم عمليون قبل كل شيء، فكانوا يقيمون الشعائر الدينية معتبرين إياها مجرد واجبات آلية لإرضاء الآلهة، وتتجلى لك هذه النزعة العملية إذا وازنت بين أنظمة الحكومة الرومانية بما فيها من الشيوخ والقناصل والجمعية العمومية والديكتاتورية وبين الفوضى في الديمقراطية الآثينية.

الفصل الثالث

الكفاح بين الأشراف والعامة

خلال القرون الأولى للجمهورية كانت روما منقسمة إلى طبقتين مختلفتين:

(١) طبقة (البطارقة) أو الأشراف وكانوا يشبهون الأشراف في أثينا قبل إصلاحات (سولون) من حيث استئثارهم بكل الوظائف لأنفسهم وحرمان الطبقات العامة منها.

(٢) طبقة (البلبيان) أو العامة وكانت محرومة من الوظائف العامة ومعظم أفرادها على جانب عظيم من الفاقة، وكان قانون الديون في روما لا يختلف عن نظيره في أثينا، ولذا نجد عددا عظيما من البلبيان يصبح رقيقا عن طريق الديون في الحرب التي قامت لطرد الملوك وإقامة الجمهورية، وهكذا تعقدت الحال الداخلية وباتت تنذر بالشر المستطير.

لذا فكر الفقراء من الطبقة الثانية في الهجرة من روما، واختاروا مكانا يسمى (الجبل المقدس) وعزموا على بناء مدينة خاصة بهم هناك عام ٤٩٤ ق. م ولكن السادة البطارقة وجدوا أنفسهم في أشد الحاجة إلى البلبيان لأنهم الأيدي العاملة في خدمتهم وفي فلاحة الأرض فصالحوهم على شروط أهمها

نسخ الديون القديمة ومنحهم الحرية وتعيين نائبين عنهم يسميان (بالتربيون) يرعيان مصالحهم ويدافعان عن حقوقهم وخول لهما أن يوقفا تنفيذ أي قانون فيه مساس بحقوق البلبيان، وأهم من هذا كله أن اعتبرت شخصية التربيون مقدسة، وفرض على من يتعرض لهما عقاب الإعدام.

واستخدم التربيون سلطتهما لتوسيع دائرة الحقوق السياسية لطبقة العامة فأعلنا أن العدالة لا يمكن أن تأخذ مجراها ما دامت القوانين غير مدونة لأن القاضي يستطيع أن يتبع هواه ما دام الشعب يجهل القوانين، وظل البطارقة يعارضون في هذا عشر سنوات، وأخيرا أرسلت البعثات إلى بلاد الإغريق لدراسة قوانين (سولون) الشارع الأثيني العظيم، وتألفت لجنة مكونة من عشر أعضاء ظلوا يعملون سنتين في وضع القوانين الرومانية، وأخيرا كتبت هذه القوانين على اثنى عشر لوحا من البرنز وعلقت في ساحة السوق العامة للمدينة عام ٤٥٠ وكان يفرض على تلاميذ المدارس في روما أن يحفظوا ما دون على هذه الألواح عن ظهر قلب.

ولما اتسع نطاق روما وزادت ثروتها زاد نفوذ العامة تبعا لذلك وأصبح الكثيرون منهم على جانب عظيم من الثراء عن طريق التجارة، وأصبحت لهم مصالح في الحكومة لا تقل عن مصالح البطارقة، فرغبوا إذ ذاك في المساواة بهم في كافة الحقوق السياسية، وفي عام (٤٤٤ ق. م) نجحوا في أن يختار منهم القنصل، ولكن البطارقة قابلوا ذلك النجاح بالتقليل من أهمية منصب القنصلية وغيروا اسمه وأطلقوا عليه (التربيون الحربي) وأنشأوا في نفس الوقت

منصبا جديدا هو (السنسور) الذي لا يصح انتخابه إلا من البطارقة، وكان ينتخب لمدة خمس سنوات ويدخل ضمن اختصاصه تعيين الشيوخ وعزلهم وتحضير الميزانية، وكان منوطا فوق هذا بصيانة الفضيلة والسهر على حماية الآداب العامة.

وظل العامة بعد هذا يجدون في الحصول على امتيازات أخرى حتى فتح السبيل أمامهم إلى وظائف (السنسور) واشتركوا في التشريع، ولم يأت عام (٣٠٠ ق. م) حتى زالت كل الفوارق التي كانت بين البطارقة والبلبيان وأصبح مجلس الشيوخ ينوب عن الشعب الروماني من غير تمييز بين الطبقات.

الفصل الرابع

سيادة روما على إيطاليا

غزو اتروريا: عرفنا أن الأترورين كانوا في بداءة الأمر سادة روما وملوكها قبل العهد الجمهوري، ثم كان بعد هاذ أن دام النزاع بين الرومان والأترورين زمنا ختم باستيلاء الرومان عام **٣٩٦** ق. م على مدينة (فيي) عاصمة الأترورين الحصينة التي حاصرها الرومان أكثر من عشر سنوات، وبسقوطها انقطع نظام الأترورين وبقى الرومان يتوغلون في أملاكهم ويستولون على بلد بعد آخر حتى سقطت كلها في أيديهم، ولعل الذي ساعد على نجاح روما أن الأترورين كانوا في حرب مع أعدائهم الغال والإغريق.

الغال يغزون روما: وبعد ست سنوات من سقوط (فيي) نزل الغال من حوض نهر البو نحو الجنوب في حملة مروعة قاصدين روما فهزموا الجيش الروماني عام **٣٩٠** ق. م ودخلوا روما وأحرقوا جانبا عظيما منها، وأخيرا جلوا عنها بعد أن قدمت لهم فدية كبيرة من الذهب، وفي هذه النكبة المشومة أحرقت السجلات العامة وضاع الكثير من مراجع التاريخ الروماني.

الحلف اللاتيني: وأول ما عمل الرومان بعد ذلك أن صيروا جيرانهم اللاتينيين رعايا لهم بعد أن كانوا حلفاءهم، ثم غزوا أرض السمنيين وانتصروا عليهم عام **٢٩٥** ق. م في واقعة سنتيوم الفاصلة.

السمنيون: وكان السمنيون ألد أعداء روما وهم لا يقلون عن الرومان في الشجاعة والمهارة الحربية، ولكنهم يفقدون القيادة الرشيدة التي كانت تتمتع بها روما في أشخاص شيوخها، وضم السمنيون إليهم الإغريق والأتروريين والغال لمحاربة روما، ولكن انتصرت روما عليهم جميعا وأصبحت بذلك سيدة إيطاليا كلها.

الحرب مع بيروس: وكانت مدينة تارنتم الغنية لا تزال محافظة على استقلالها ولكنها كانت تخشى أن تقضي سفن روما الحربية على تجارتها في بحر الأدرياتيك فاستنجدت بالملك بيروس صاحب مقاطعة (أبيروس) الإغريقية.

واستطاع (بيروس) عام ٢٨٠ ق. م أن يهزم الرومان في واقعة (هرقليا)، ولكن استبسالهم في الحرب جعل (بيروس) يعجب بهم ويقول كلمته الشهيرة (لو أظلت رايتي جندا كالرومان لفتحت بهم الدنيا) وفي العام التالي أحرز نصرا آخر ولكنه كلفه خسارة فادحة، ثم حارب الرومان مرة أخرى عام ٢٧٥ فهزموه هزيمة حاسمة في واقعة (بنفنتم)، ولما فقد كل أمل في الانتصار عبر الأدرياتيك وعاد خائبا إلى بلاده تاركا الرومان يستولون على المدن الإغريقية، وبذا أصبحت روما سيدة إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها.

الفصل الخامس

الحروب في روما وقرطاجة

٢٦٥ – ١٤٦ ق. م

أصل قرطاجنة: قرطاجنة مدينة على ساحل أفريقيا الشمالي عند أقرب نقطة من هذا الساحل لجزيرة صقلية، وهي مستعمرة أسسها الفينيقيون في القرن التاسع قبل تأسيس روما بأكثر من مائة عام، ولكنها سارت في سبيل النمو والقوة بخطوات أوسع من خطوات روما لاشتغالها بالتجارة.

حكومتها: وكانت تشبه روما في أنها لم تكن تحكم حكما ملكيا بل كان الأشراف الذين أثروا عن طريق التجارة هم القابضون على زمام الأمور فيها.

أملاكها: وكان كل النصف الغربي لساحل أفريقيا الشمالي خاضعا لقرطاجنة ثم إن جنودها وتجارها كانوا يحتلون صقلية الغربية وسردينيا وقرسقا وساحل إسبانيا وبالاختصار فقد كانت قرطاجنة أهم مركز تجاري في البحر المتوسط في الوقت الذي انحطت فيه منزلة الفينيقيين في الشرق. ويسمى الكفاح الذي دام طويلا بين روما وقرطاجنة بالحروب الفونيقية أو البونيقية أو البونية نسبة إلى فينيقيا، استعرت نارها عام ٢٦٥ق. م ووضعت أوزارها عام ١٤٦ ق. م أي أنها بقيت ١١٩ عاما

ولكنها كانت تشبه حروب البلوبونيز الإغريقية من حيث أن فترات طويلة من السلم كانت تتخلل أدوارها، وتتلخص أسبابها فيما يلي:

أسبابها – كانت روما وقرطاجنة تتنافسان على السيادة في البحر الأبيض المتوسط وترغب كل واحدة منهما في التسيطر عليه لتوسيع حدودها ونشر تجارتها.

(٣) لم تكن روما تأمن على شواطئها من غارات أسطول قرطاجنة القوي، ولم يكن التجار الرومان يستطيعون الخروج إلى جهات بعيدة عن شواطئهم إلا بإذن من قرطاجنة.

(٤) تحول التنافس بينهما إلى كراهية شديدة وخاصة لاختلافهما في الجنس والدين واللغة.

الحرب الأولى (٢٦٥ – ٢٤٢ ق. م)

السبب المباشر – أما السبب المباشر الذي أدى إلى الحرب الأولى فيتلخص في أن بعض قراصنة البحر الإيطاليين استوطنوا مدينة مسينا وهي أقرب مدينة لإيطاليا، ورغب الفينيقيون والإغريق على السواء في إجلائهم عنها فاستنجد القراصنة بروما، ولما كانت سياسة روما ترمي إلى إبعاد الفينيقيين عن صقلية فقد أرسلت جندها مداد للقراصنة، وهكذا بدأت الحرب الأولى التي دامت اثنين وعشرين عاما من ٢٦٥ إلى ٢٤٢ ق. م.

نمو بحرية روما – وعندما بدأت الحرب في صقلية نجح الرومان في صد القرطاجينيين وأرغموا ملك سيرا كوز الإغريقي على أن ينضم إليهم ويترك محالفة قرطاجنة، إلا أن قوات قرطاجنة ألحقت من الخسائر بالساحل الإيطالي ما جعل الرومان يقتنعون بضرورة إنشاء أسطول لأنفسهم، وكانت إحدى سفن قرطاجنة قد غرقت على ساحل إيطاليا فأخذها الرومان وصنعوا مثلها وبدأوا يدربون رجالهم على التجديف وركوب البحار.

ريجولوس في أفريقيا – وفي عام (٢٥٧ ق. م) أبحر (ريجولوس) قنصل روما على رأس أسطول روماني كبير إلى أفريقيا واستولى على معظم بلاد الساحل الإفريقي، وطلبت قرطاجنة الصلح فلم يقبل، فجمع القرطاجينيون جيشا قويا وانقضوا على الرومان وهزموهم وأخذوا (ريجولوس) أسيرا عام (٢٥٥ ق. م).

الحرب في صقلية – وكانت الحرب لا تزال مستعمرة في صقلية حيث انتصر الرومان (عام ٢٥٠) وأسروا عددا عظيما من أشراف قرطاجنة وجنودها، وكان القرطاجينيون يرغبون في تخليص أشرافهم فأطلقوا سراح (ريجولوس) على شرط أن يطلق سراح أشرافهم بعد أن تعهد لهم أنه إذا لم يفلح في إطلاق سراحهم فإنه يعود ثانية إلى أسره في قرطاجنة، ولما وصل إلى روما نصح لأعضاء مجلس الشيوخ ألا يطلقوا سراح الأسرى لأن في ذلك خسارة كبيرة على روما، ثم ودع أطفاله وزوجته الوداع الأخير ورجع برا بوعده إلى أعدائه في قرطاجنة حيث مات ميتة الشرف والاستشهاد.

ختام الحرب الأولى – ودامت الحرب حتى ٢٤١ ق.م وكانت قرطاجنة قد أنهكتها الحرب فرغبت في الصلح، وكان قد ظهر بين أشرافها (هملكار) الملقب (بالبرق) فرأى أن قرطاجنة في حاجة إلى إيقاف الحرب لتقوية نفسها وتدريب جندها على الحرب البرية.

شروط الصلح: وفي عام ٢٤١ عقد الصلح بين الطرفين على الشروط الآتية:

(١) يخلي القرطاجنيون جزيرة صقلية بأسرها

(٢) لا يحاربون (سيرا كوز) مرة أخرى

(٣) يتعهدون برد جميع الأسرى الرومان من غير فدية

(٤) يدفعون للرومان في خلال عشر سنوات غرامة حربية تقدر قيمتها بمبلغ ٧٥٠ ألف جنية على أن يدفع ثلثها مقدما.

أهمية الصلح: ويلاحظ أن هذا الصلح أكسب روما أرضا خارج حدود شبه جزيرة إيطاليا، إلا أنه يعتبر هدنة مسلحة لأن كل فريق بدأ يقوي نفسه استعدادا لحرب مقبلة.

الحرب الثانية ٢١٨ – ٢٠١ ق.م

هنيبال في إيطاليا: كان "هنيبال" قد وعد أباه وهو غلام بالانتقام من روما، ثم ما لبث أن حقق وعده وأظهر وهو في التاسعة عشرة أنه جدير بأن يوضع في صف الإسكندر وقيصر ونابليون، ففي ربيع عام ٢١٨ عبر جبال

البرانس يقود جيشا مكونا من تسعين ألف من المشاة وأثنى عشر ألف من الفرسان كان قد دربهم جميعا بنفسه، وظل في زحفه حتى عبر جبال الألب الغربية ونزل وادي نهر البو، وعبور الألب لا شك إحدى معجزات الحروب في التاريخ القديم، فقد كان السير في هذه المنطقة صعبا لدرجة أن الرومان لم يتوقعوا قدوم أي جيش من هذه الناحية، وسرعان ما خرج القنصلان للقائه، ولكن هزمت جيوشها أمام القائد البوني، ثم أنه جاوز هذا إلى إشعال نار الثورة بين قبائل الغالة واستطاع أن يؤلف منهم جيشا يربو على ستين ألف مقاتل، ولم يجاوز غير بعيد حتى أوقع بالرومان هزيمة أخرى ذبح فيها معظم الجيش الروماني عند بحيرة ترازمين (عام ٢١٧ ق. م).

واقعة كانيا ٢١٦ – هنا عظمت مرزأة الرومان وحطموا القناطر المقامة على نهر التيبر لتوقعهم زحف عدوهم إلى روما، ولكن "هنيبال" مر بروما وزحف نحو الجنوب كي يثير الفتنة ضد روما بين سكان الجنوب، والتقى الطرفان في (واقعة كانيا) الفاصلة عام ٢١٦ ق. م في جنوب إيطاليا. ولم ير التاريخ قائدا أظهر من النبوغ والتفنن الحربي ما أظهره "هنيبال" في كانيا. فقد تمكن بجيشه الصغير أن يقتل ثمانين ألف من جند روما وأن يأسر معظم الباقين، وكان بين القتلى ثمانون من أعضاء مجلس الشيوخ ولم يفقد "هنيبال" من جنده غير ستة آلاف كان ثلثاهم من الكلت.

نتائجها – وأهم نتائج هذه المعركة أن خرج على روما معظم حلفائها فتحالف فيليب المقدوني مع قرطاجنة وتعهد بإنزال جيش على ساحل إيطاليا

الشرقي، وأغرب من هذا أن سيرا كوز التي كانت حليفة روما حتى آخر لحظة قبل المعركة انضمت إلى جانب قرطاجنة ولم يمض غير سنوات قلائل حتى أصبح "هنيبال" سيد إيطاليا الجنوبية بأسرها.

استعداد روما – وسط هذه الأزمة الخطيرة عمل شيوخ روما على تأليف جيش جديد التزموا أن ينظموا في سلكه عددا من العبيد والغلمان. وبدأوا بهذا الجيش يستولون على بلد آخر من البلاد التي انضمت إلى قرطاجنة فاستولوا على سيرا كوز عام ٢١٢ ق. م واضطروها إلى دفع الجزية، ولم يأت عام ٢١٠ ق. م حتى استرد الرومان كل صقلية ومدينة (كابوا) التي كانت تعد ثانية مدن إيطاليا.

الحرب في إسبانيا – أما في إسبانيا فكانت الحرب لا تزال قائمة بين الفريقين حيث استطاع القائد الروماني العظيم "سيبو" أن يهزم "هزدروبال" القائد البوني.

هزدروبال في إيطاليا – ولم يلبث "هزدروبال" أن قاد جيشا لنجده أخيه "هنيبال" فسار نحو روما، ولكن الرومان أوقعوا به هزيمة شنيعة قتل فيها وتشتت شمل من نجا من جنوده عند نهر متورس عام ٢٠٧ ق. م. وبقى "هنيبال" أعواما قلائل يكافح بجيشه حتى ضعف جنوده وجلوا عن مساحات واسعة في إيطاليا احتلها الرومان بالتدريج.

ظهور شبيو: وأخيرا وجد الرومان قائدا حربيا فذا في شخص "شبيو" الذي عاد إلى روما بعد انتصاراته الهائلة في إسبانيا وانتخب قنصلا عام ٢٠٥

ق. م وبعد انتخابه طلب من الشيوخ أن يرسلوه على رأس حملة لتحطيم قرطاجنة في أفريقيا حتى يجبر "هنيبال" على الجلاء عن إيطاليا. وانتصر (شبيو) في معركتين عظيمتين في أفريقيا فاضطر القرطاجينيون إلى استدعاء "هنيبال" كي يدافع عن قرطاجنة (عام ٢٠٣) بعد أن قضى في إيطاليا خمسة عشر عاما، وفي (واقعة زاما) الشهيرة التقى القائدان العظيمان شبيو وهنيبال، فانتصر الأول انتصارا مبينا واضطر عدوه "هنيبال" إلى قبول الصلح في سنة ٢٠١ ق. م على الشروط الآتية:

(١) تدفع قرطاجنة لروما غرامة حربية هائلة.

(٢) تتنازل قرطاجنة عن كل أملاكها في إسبانيا لروما وتسلمها كل سفنها الحربية ما عدا عشرين واحدة.

(٣) تصبح قرطاجنة حليفة رومانية تعترف بالسيادة لروما وتدفع لها الجزية.

وبمقتضى هذه الشروط لم يكن لقرطاجنة أن تحارب في أي مكان إلا بموافقة روما صاحبة السيادة عليها. واضطر "هنيبال" بعد عقد الصلح أن يفر من قرطاجنة لأن الرومان ضيقوا عليه الحصار، ثم ظل يتنقل من بلاط إلى آخر وروما تطارده حتى لم يعد يقوى على الصبر وأخيرا شرب السم ومات عام "١٨٣ ق. م" وتصادف أن مات في نفس هذا العام خصمه العنيد "شيبو"

الحرب الثالثة (١٤٩ – ١٤٦)

كانت روما بعد الحرب الثانية تخشى أن تجدد قرطاجنة قوتها وتعود إلى منافستها، وكان السنسور "كاتو" قد ذهب إلى قرطاجنة ليشهد أحوالها، فلما عاد وقف بين شيوخ روما ونفض ثوبه فسقط على الأرض بين إفريقي لا يزال حديث عهد بالقطاف، وبينما الشيوخ معجبون بجمال ذلك الثمر وضخامته قال لهم "كاتو" كلمته الشهيرة "لم يمض غير ثلاثة أيام على قطاف ذلك التين، وتلك هي المسافة التي تفصل عدونا عنا، ونصيحتي لكم أن تصرفوا عنايتكم في القضاء على قرطاجنة".

ثم جاء الظرف المناسب حين وقعت قرطاجنة في حرب مع "نوميديا" حليفة روما الواقعة غرب قرطاجنة فتذرعت روما بذلك وأرسلت جيشا إلى أفريقيا بحجة أن قرطاجنة أخلت بشروط المعاهدة التي أبرمت (عام ٢٠١) وتمكن قائد الرومان (شبيو الصغير) أن يقتحم قرطاجنة، ثم أطلق جنده في نواحيها فاستباحوها سلبا وقتلا وإحراقا ستة أيام بلياليها وفي الليلة السابعة، لم يبق إلا أن يقبض الرومان على (هزدروبال الصغير) قائد قرطاجنة وكان محتميا في معبد (اسكيلاب) الحصين ومعه زوجته وأطفاله وما يقرب من تسعمائة جندي من الهاربين فلما دخل الرومان المعبد رغب (هزدروبال) في أن ينجو بنفسه فلوح لهم بغصن الزيتون إشارة التسليم، إلا أن هذا أغضب رجاله فكانوا له اللعنات وأشعلوا النار في المعبد، وبينما النار يعلو لهيبها تقدمت زوجه (هزدروبال) تحمل أطفالها وقالت على مسمع منه بصوت دوي به المكان:-

"إني لا أنادي بسقوطكم أيها الرومان فأنتم تخدمون أوطانكم وتعملون على إذلال عدوكم وهذا منكم وفاء لأمكم روما، ولكني أبتهل إلى آلهة قرطاجنة وإليكم أن تصبوا جام غضبكم على ذلك الخائن الذي نقض عهد الوطن من بعد ميثاقه" ثم نظرت إلى زوجها وقالت تخاطبه (قم أيها النذل وأنظر إلى تلك النار التي سيكون أطفالك وقودها، أما أنت فأذهب إلى روما لتكون زينة في موكب الانتصار ينظر الرومان إليك ويبصقون في وجهك ويسومونك العذاب الغليظ).

ولم تكد تنتهي من كلامها حتى ألقت بنفسها وأطفالها في النار فأكلتهم جميعا، وصنع جنود قرطاجنة صنيعها، وكان هذا آخر مشهد أليم أسدل عليه ستار هذا البلد العظيم الذي صار بعد هذا مستعمرة رومانية.

وأعظم أثر لهذه الحروب أنها صيرت روما سيدة البحر المتوسط وحاكمة قرطاجنة وإسبانيا، ومن ثم بدأت توسع إمبراطوريتها في حوض هذا البحر، إلا أن الحرب أنهكت قواها وأفنت زهرة شبابها وصرفت الناس عن الزراعة إلى الاشتغال بالحرب فاضطر الرومان إلى جلب الرقيق من مستعمراتهم لفلاحة الأرض.

الفصل السادس

امتداد الفتوح الرومانية في حوض البحر الأبيض المتوسط

عرفنا أن إمبراطورية الإسكندر قسمت بعد موته بين قواده العظام، وفي الوقت الذي قضت فيه روما على منافستها قرطاجنة كان خلفاء الإسكندر يحكمون ثلاث ممالك عظيمة هي (١) دولة مقدونيا وكان يخضع لحكمها جزء عظيم من بلاد الإغريق (٢) دولة السلوكيين في سوريا وكانت تشمل آسيا الصغرى وبعض الجزر في بحر إيجا (٣) دولة البطالسة في مصر وهي التي تعتبر بحق وارثة الثقافة والحضارة الإغريقية، كما أن مصر أخصبت هذه الممالك كلها وأكثرها إنتاجا للغلال.

ودخلت هذه الممالك الواحدة بعد الأخرى ضمن حدود الإمبراطورية الرومانية، وهكذا وقف الرومان وهم يمدون فتوحهم في الشرق وجها لوجه أمام مدينة الإغريق التي نشرتها فتوح الإسكندر.

ويرجع سبب الحروب المقدونية إلى أن فيليب الخامس ملك مقدونيا تحالف مع "هنيبال" ضد روما عام ٢١٥ وهذا أدى إلى قيام الحرب الأولى عام ٢١٣ في الوقت الذي كانت فيه الحرب البونية الثانية لا تزال قائمة، وانتهت الحرب الأولى سنة ٢٠٥ وكانت أهم نتائجها أن روما بدأت تتدخل

في شئون الإغريق، ثم قامت الحرب الثانية فالثالثة فالرابعة التي انتهت سنة ١٤٨ بتحويل مقدونيا كلها إلى ولاية رومانية.

أما سوريا فإن ملكها (انطيوك الأكبر) هزم أمام جندروما وفقد معظم آسيا الصغرى، وسرعان ما تحولت كل هذه الأملاك إلى مستعمرات رومانية.

ودخلت مصر تحت حماية روما عام (١٦٨ ق. م) وبقيت تعتبر روما المرجع الأعلى لها حتى جاء عهد "كليوباترا" آخر ملوك البطالمة فتحولت مصر إلى ولاية رومانية بعد واقعة أكتيوم التي سبق الكلام عنها في تاريخ البطالمة.

الفصل السابع

عهد الحروب الأهلية

(١٣٣ - ٣١ ق. م)

قبل أن ينقضي القرن الثاني كان البحر المتوسط قد أصبح بحيرة رومانية واعترف كل العالم المتمدين بزعامة روما، ومن ثم ثقل العبء على كاهلها وأصبحت مهمتها بعد هذا أن تغزو البلاد المتبربرة مثل غالة وبريطانيا وألمانيا وتدخل فيها الحضارة الرومانية.

وجرت الفتوح الرومانية في أذيالها المال الوفير والثراء الطائل وخرج المال بالشعب الروماني عن سذاجته الأولى إلى حب الترف والنزوع إلى حياة النعيم، فاشترى أشراف إيطاليا الأغنياء معظم الأراضي الزراعية وجلبوا فرق الرقيق تعمل في فلاحتها، أما صغار الفلاحين الذين كانوا عماد روما في أوائل الجمهورية فقد أختفى أثرهم لأن بعضهم راحوا في الحروب بينما الباقون كانوا قد نزحوا إلى المدن لعدم استطاعتهم العيش في الريف تحت سيطرة الملاك الأغنياء فاكتظت روما بجموع العاطلين الذين زاد عددهم عاما بعد عام وكانوا يتدخلون في شئون الحكم ويعترضون تنفيذ القوانين التي لا ترضيهم وبدأ الإشراف يحسبون حساب العاطلين ويعملون على إرضائهم وعظم خطرهم لدرجة أن القياصرة أنفسهم كانوا يحاولون استرضائهم.

وكان العاطلون يفخرون بأنهم من الرومان ويعلنون في كل وقت أن الحقوق التي يتمتعون بها يجب ألا يشاركهم فيها غيرهم، وعلى هذا بدأ سوء التفاهم بينهم وبين بقية الأجناس الإيطالية حتى اللاتينية منها ولا تسل عن حال أهالي الأملاك الأخرى خارج إيطاليا فقد كانوا ينئون من عسف الولاة الرومان وفداحة الضرائب التي تجبي والطرق الجائرة التي تتبع في جبايتها[1]. فكان أشراف روما يرسلون إلى الخارج ولاة على الأملاك البعيدة، وهؤلاء كان لا هم إلا جمع الأموال بكل الطرق الممكنة وكان منهم المرابون الذين جمعوا الأموال الطائلة من الشرق وبلاد الإغريق، وكانوا إذا رجعوا إلى روما أقاموا القصور وعاشوا فيها عيشة الخمول والترف، وهكذا فقد الرومان الصفات التي كانت سبب نجاحهم وتسلطهم على جيرانهم، صفات البساطة والخشونة والنشاط.

وقام الكثيرون بمحاولات لإصلاح هذه الحال السيئة، وأهم المصلحين "تيبيرياس جراكاس" الذي انتخب تربيونا عام (١٣٤ ق. م) وتتلخص إصلاحاته في سن قانون يقضي بتقسيم الأرض العامة إلى أنصبة صغيرة توزع على الفقراء، ولكن صادف ذلك القانون معارضة شديدة من جانب

---

[1] كانت تتبع في جباية الضرائب طريقة الالتزام وهي أن يتعهد الملتزم بدفع الضرائب اللازمة عن المقاطعة كلها دفعة واحدة. ثم يترك له مطلق التصرف في جمعها من الأهالي لنفسه وكان الملتزمون يجمعون من الأهالي أضعاف ما يقدمون إلى الحكومة المركزية في روما.

الأشراف الذين كانوا يستولون على هذه الأرض، وانتهى أمره بأن قتل وقضى على إصلاحه بالفشل.

وبعد عشر سنوات حاول أخوه "كاياس" أن يحدث انقلابا هاما في الحكومة فرغب في جعل السيادة للشعب بأن يعطي للجمعية العمومية الحق في سن القوانين وتنفيذها من غير ضرورة لموافقة القناصل والشيوخ واقترح فوق هذا أن يتمتع اللاتين بكافة الحقوق المدنية، بل جاوز هذا إلى مساواة الأجناس الإيطالية الأخرى باللاتين. ولكن صادف (كاياس) مقاومة عنيفة انتهت باغتيال حياته (عام ١٢٢ ق. م).

ومنذ عهد الأخوين (جرا كاس) بدأ عهد ثوري استمر ما يقرب من مائة عام (١٣٣ – ٣١ ق. م) تميز بعدة حروب أهلية وحركات من جانب القواعد للاستئثار بالحكم والقضاء على مساوئ الحكومة وعيوبها.

وكانت حكومة الشيوخ تضعف بالتدريج ويسوء حالها منذ انغمس الأشراف في حياة الترف، ولهذا انعطف الكثيرون إلى رأي الأخوين (جرا كاس) وسمى حزبهم "الجراشي" وكانوا يعملون على نقل السلطة من الشيوخ إلى الجمعية العمومية.

ومن ظاهرات عصر الثورات نمو قوة الجيش تبعا للفتوحات العظيمة التي تمت على أيدي الجنود ولما كانت الحرب قائمة دواما فإن الجندية أصبحت صناعة لا يتركها الجندي بل ينقطع لها ويحترف بها، وبدت للقواد فرصة التدخل في شئون الحكومة وخصوصا في حالات ضعفها، وهكذا

استخدم القواد قوة الجيش في تنفيذ سياستهم ومن ثم كثرت الحروب الأهلية من جراء النزاع بين القواد، وأهم هذه الحروب ما يأتي:

قدمنا أن العبيد كانوا يجلبون إلى إيطاليا وصقلية وهؤلاء قاموا بثورة دامت خمس سنوات وانتهت بأن قضت الحكومة عليها.

أما الحرب الاجتماعية فقد قام الإيطاليون يطالبون بالحقوق السياسية التي يتمتع بها سكان روما ويطالبون بالاشتراك في الوظائف الحكومية، وأخيرا أجابتهم روما إلى ما طلبوا بعد كفاح طويل كي تأمن شرهم وتضمن صداقتهم.

وكان المصارعون يستأجرون من قبائل الغال والقوط للمصارعة في المسارح والمدرجات الرومانية ترويحا للشعب وتحذيرا لأعصاب العامة العاطلين وصرفهم عن معارضة أنظمة الحكم القائمة، وهؤلاء المصارعون قاموا بثورة استطاع الرومان إخمادها بعد أن دامت سنتين.

ولا يصح أن نغفل في تاريخ هذا القرن الكلام عن أولئك الرجال الذين مهدوا السبيل إلى الإمبراطورية فبعد عهد الجراكي (الجراشي) ظهر قائد من أصل وضيع يدعى (كاياس ماریاس) كان قد نجح في حربه مع قبائل التيوتون. فترأس العامة وقام بثورة أهلية ضد الأشراف نجح فيها وحكم روما حكما تميز بالإرهاب، ولكنه مات عام ٨٦ بعد أن عين قنصلا سبع مرات متواليات، وبذا رسم للزعماء الذين خلفوه طريق الدماء والفوضى فنهجوا مناهجه وساءت الحال.

وقام بعده القائد (صلا) وهو زعيم حزب الأشراف وتمكن من الاستئثار بالحكم في روما وبقي ديكتاتوريا بها أربع سنوات.

ثم ظهر الديكتاتور (بومبيوس) وكان قد حارب جنبا إلى جنب مع (صلا) في الحروب الأهلية وفي عام ٦٦ ق. م قاد الجيوش الرومانية في آسيا ومد النفوذ الروماني على سوريا ومعظم آسيا الصغرى ثم عاد عام (٦١) إلى روما وكانت حكومة الشيوخ ضعيفة فاستطاع بالتواضع والملق أن يكسب عطف الشعب الروماني. ثم قام نزاع بينه وبين الشيوخ انتهى بمحاولته الاستقلال عنهم باشراك اثنين من أعاظم المعاصرين له في الحكم أولهما (يوليوس قيصر) والثاني "كراساس" وباشتراكهم كونوا الحكومة الثلاثية الأولى.

أتفق هؤلاء الزعماء على أن يحكموا أملاك روما بالاشتراك وأن يعينوا أشخاصا من أتباعهم ممن يعتمدون عليهم في الوظائف الكبيرة وبعد أن تولى يوليوس قيصر منصب القنصلية عام (٥٩ ق. م) أعطى قيادة جيش كبير لغزل بلاد الغال (فرنسا الحالية) فاستطاع بالتدريج إخضاع قبائلها وربطها بروما وفي عام (٥٩ ق. م) قتل كراساس وهو يحارب في آسيا الصغرى وبذا أصبح قيصر وبومبيوس وجها لوجه.

وبدأ "بومبيوس" يدبر المؤامرات ضد قيصر ويحاول الاستئثار بالحكم، وكان قيصر لا يزال في غالة بجيشه فرغب في القضاء على منافسة، وفي أقل من ستين يوما استطاع قيصر أن يستولى على إيطاليا كلها ثم طارد ضباط

بومبيوس الهاربين وهزمهم في إسبانيا، وتتبع عدوه بومبيوس إلى بلاد الإغريق حيث انتصر عليه في واقعة فرساليا الحاسمة التي تفرق فيها جيش "بومبيوس" وهرب هو إلى مصر حيث قتل هناك بإيعاز من وزير بطليموس الثاني عشر إرضاء لقيصر.

ولم يمض عام ٤٥ ق. م حتى أصبح قيصر أشبه بحاكم ديمقراطي على الرومان، وعظم شأنه في أعين الجند والشعب على السواء لدرجة أنه حكم روما حكما ديكتاتوريا دائما، وكان لا شك يطمع في تأسيس أسرة حاكمة وراثية.

وحاول قيصر إصلاح الحكومة المركزية ومنح سكان المقاطعات الخارجية نفس الامتيازات التي يتمتع بها الرومان وتحويل الحكومة إلى ملكية يكون أعضاء مجلس الشيوخ فيها مستشارين للملك، ولكن الجمهوريين عشاق النظام القديم لم يعرفوا فضله وألفوا عصابة لاغتيال حياته بزعامة (كاسياس) ومن أهم أعضائها بروتس وكاسكا، وبرغم أن أعضاء هذه المؤامرة كانوا ممن أحسن إليهم قيصر وأبدى نحوهم الإشفاق والعطف في حياته فإنهم أعلنوا أن واجبهم يقضي عليهم أن يقتلوه باسم الحرية والجمهورية التي رغب في إسقاطهما.

وبينما قيصر في قاعة مجلس الشيوخ أحاط به المتآمرون بإشارة خاصة كانوا قد اتفقوا عليها، وطعنه (كاسكا) الطعنة الأولى ثم أسرع الباقون إلى سيوفهم فاستلوها، ودافع قيصر عن نفسه في أول الأمر ولكنه عندما رأى

صديقه "بروتس" قد أستل سيفه قال بصوت الأسيف كلمته الأخيرة: "حتى أنت يا بروتس !!!" ثم غطى وجهه بثوبه الأبيض وسقط على الأرض مضرجا بدمائه تحت قدمي تمثال في قاعة الشيوخ نصب تخليدا لذكرى "بومبيوس" وكان اغتيال حياته في اليوم الخامس عشر من شهر مارس عام ٤٤ ق. م وبموته قبرت معه مشروعات الإصلاح العظيمة التي كان يرغب في إنقاذها.

ووصلت أخبار مقتل قيصر إلى أكتافيو، وكان لا يزال فتى يتلقى دروسه في اليريا حيث أرسلت إليه أمه خطابا تأمره بالهرب إلى الشرق كي ينجو بحياته من شر قتلة قيصر. ولكن كان جواب اكتافيو على ذلك أن عاد مسرعا نحو روما.

وكان قيصر قبل موته قد تبنى "اكتافيو" بطريقة شرعية وأعلن أنه الوارث الوحيد له، فلما عاد إلى روما اتفق مع أنطونيو أحد أتباع قيصر الذي كان إذ ذاك قنصلا على روما وتمكن اكتافيو بهذا أن يرقى القنصلية وهو لا يزال في العشرين من عمره عام ٤٣ ق. م ثم ألف تحالفا ضم فيه إلى شخصه انطونيو ولبيدوس، وبذا ظهرت الحكومة الثلاثية الثانية (عام ٤٣ ق. م).

ولقد تميزت هذه الحكومة في أول عهدها بإعادة الإرهاب الذي ساد أيام مارياس وصلا، فصادرت أملاك الناس وقتلتهم لمجرد تفكيرهم في إعادة النظام الجمهوري، ومن أهم الذين راحوا ضحية ذلك الإرهاب "شيشرون" الخطيب الروماني الشهير.

وكانت جيوش بروتس وكاسياس زعيمي المعارضة للحكم الجديد معسكرة في مدينة فلبى بمقدونيا، وهناك استطاع أكتافيوس أن ينزل بها هزيمة شنيعة انتهت بتثبيت دعائم الحكومة الثلاثية وتقسيم أملاك روما بين المنتصرين، فأعطى لبيدوس حكم أفريقيا وبقى اكتافيو يحكم روما وذهب أنطونيو للإقامة في سوريا وحكم الأقاليم الشرقية.

وكانت أول مقاومة صادفها اكتافيو من جانب أحد أبناء بومبيوس الذي حشد جيشا ثويا وأعد أسطولا استطاع بهما الاستيلاء على صقلية، ولكن اكتافيو استعان بحاكم أفريقيا "لبيدوس" وتمكن من الانتصار على جيوش عدوه، ثم ما لبث لبيدوس نفسه أن طمع في صقلية فهزمه اكتافيو وجرده من منصبه ثم كان أخيرا ما كان من شأن (أنطونيو) مع (كليوباترا) ملكة مصر إذ أحبها وعاش معها في الإسكندرية تاركا مهام منصبه، وهذا أثار ضده اكتافيو وشيوخ روما وشعبها فهب الجميع للانتقام منه، وفي واقعة أكتيوم الشهيرة على الساحل الغربي لبلاد الإغريق التقى حاكم الغرب بحاكم الشرق عام ٣١ ق. م وكانت النتيجة تحطيم الأسطول المصري وفرار كليوباترا وأنطونيو إلى الإسكندرية.

وفي العام التالي لحق بهما اكتافيو فدخل مصر من غير مقاومة وصيرها ولاية رومانية عام ٣٠ ق. م بعد أن انتحر أنطونيو وكليوباترا، وبذلك انقضى قرن الثورات الذي بدأ منذ عهد الجراشي عام ١٣٣ ق.م.

وأدى مقتل قيصر إلى فوضى دامت ثلاثين عاما، وهذا جعل الناس يرغبون في أية حكومة تعيد القانون والسلام، ولم يكن في الدولة إذ ذاك أقوى م (أكتافيو) الذي آلت إليه الزعامة بعد واقعة أكتيوم، وعلى يده تحولت حكومة روما إلى ملكية أوتوقراطية.

ولم يرغب "اكتافيو" أن يلقب نفسه ملكا حتى لا تقوم الثورات في وجهه، بل أكتفى أن يلقب نفسه "إمبراطورا" ومعنى هذا اللقب في الأصل "قائد الجيش"، ومنذ ذلك الوقت أطلق لقب إمبراطور على خلفاء "اكتافيو"، ثم جاوز هذا إلى أن لقب نفسه رئيسا للكهنة فجمع بذلك جميع السلطات في يده.

وفي النهاية أطلق عليه لقب (أغسطس) ومعناه "الأعظم" وهو يعادل قولنا الآن (صاحب الجلالة) ومنذ ذلك الوقت أصبح "أغسطس" علما لاوكتافيوس.

الفصل الثامن

الحضارة في عهد أغسطس

يعتبر عصر "أغسطس" الفترة الذهبية في تاريخ الأدب الروماني لظهور طائفة من أعاظم الكتاب الذين رقى النثر اللاتيني على أيديهم إلى أقصى درجات الكمال، ثم أعقب ذلك نهوض في صناعة النظم أنتج قطعا لا تزال حتى اليوم المثل الأعلى للأدب اللاتيني.

ولم يهتم الرومان بالعلم اهتمامهم بالأدب، فقد أظهر الكثيرون من عظماء روما رغم اضطلاعهم بالمناصب ذات المسئوليات الخطيرة انعطافا كبيرا نحو الآداب، ومن أمثلة ذلك أن "يوليوس قيصر" ألف رسالة (في الكلام اللاتيني) أهداها إلى "شيشرون" رب البلاغة في النثر اللاتيني في ذلك العصر وأخطب خطيب عرفته روما، على أن نهضة الرومان لم نكن وليدة إيطاليا، وإنما كانت مستمدة من أحياء الآداب الإغريقية القديمة وبعث المؤلفات التي ظهرت في عصر "بركليس" وهكذا اختلطت الثقافة الإغريقية بالعقول الرومانية فخلفت أنضج المنتجات الفكرية التي شهدها التاريخ القديم.

ومن أعظم شعراء هذا العصر "فرجيل" ويشتهر بقصيدته الخالدة "انيد" التي تعني فيها بالأعمال المجيدة التي تنسب إلى البطل "نياس" رأس عائلة الجوليان التي منها "يوليوس قيصر".

أما "أوفيد" فقد درس الحقوق في أثينا ولكن ميله للشعر جعله يهجر القانون وينصرف للنظم، وأهم كتاباته قصيدته الشهيرة "فن الحب" وهي التي من أجلها نفاه "أغسطس" من روما بحجة أن كتابته مفسدة لأخلاق النشء.

ووصف "هوراس" في قصائده عظماء الرجال الذين عاصروه وشعره من الطبقة الأولى في الأدب اللاتيني، وهو يميل إلى مذهب ابيقور الإغريقي من حيث انتهاز الفرص في تحصيل ملاذ العصر الذي يعيش فيه.

ومن أشهر مؤرخي عصر "أغسطس" ليفي الذي كتب تاريخا ضخما لروما منذ نشوئها حتى عهد أغسطس يقع في ١٤٢ ملفا ظل يعمل في تأليفه أربعين عاما. ولا تمتاز كتابة ليفي إلا بطلاوة اللفظ والتفنن في صناعة القلم، أما الحقائق التاريخية التي جاء بها فلا يصح الاعتماد عليها.ولم ينبغ أحد من رجال الفن الرومان في شيء مبتكر، وخلاصة القول في هذا الاتجاه أن الرومان قلدوا الفن الإغريقي دون أن ينجحوا في إنتاج فن يمتاز عنه. ومن أعظم المباني الخالدة في روما معبد الكابتول العظيم الذي يعتبر أفخم معبد في العالم القديم.

أما العلوم فلم يكن لروما منها نصيب يذكر ولم يظهر من العلماء غير (استرابو) الجغرافي ولم يكن في الأصل رومانيا بل كان إغريقيا عاش في روما، ومن أهم كتاباته مؤلف في الجغرافيا يقع في ١٧ كتابا ومما زاد في طلاوة هذا الكتاب أن (أسترابو) مزج فيه التاريخ بالجغرافيا بالرحلات، ولكنه رغم هذا يفقد الروح العلمية الصحيحة.

الفصل التاسع

الإمبراطورية بعد أغسطس

بعد أن أنقضى عصر أغسطس الذهبي رقى عرش الإمبراطورية (تيبيرياس) (١٤ – ٣٧) بوصية من أغسطس وخلفه أباطرة كثيرون أهمهم (كاليجولا) الذي بلغت فظاظته وغلظته مبلغا عظيما، ثم حكم نيرون (٥٤ – ٦٨) المشهور بقسوته وتجر قلبه، وتمكن تراجان (٩٨ – ١١٧) من ضم جزء عظيم من شمال بلاد البلقان الحالية وبلغت الإمبراطورية في عهده أقصى اتساعها ومنتهى عظمتها فكانت تمتد من المحيط الأطلسي إلى الفرات ومن إنجلترا إلى مدار السرطان وهذه المنطقة بلغ عدد سكانها ١٢٠ مليونا بما في ذلك العبيد.

أما القرن الثاني فأهم أباطرته "مارك أورليوس" (١٦١ – ١٨٠) وكان محاربا ماهرا وحاكما قديرا وفيلسوفا عظيما، وبموته انقضت أيام مجد الإمبراطورية وبدأ البرابرة يغيرون على أملاك روما من كل ناحية.

ثم جاء "كراللا" (٢١١ – ٢١٧) الذي منح كل سكان الإمبراطورية الحقوق المدنية الرومانية، ولكن ضعف روما أدى إلى زيادة سلطان القواد والجنود وبدأوا يولون الأباطرة ويعزلونهم خلال القرن الثالث.

ويتميز هذا القرن فوق الحروب الخارجية مع البرابرة بحروب أهلية أخرى كادت تقضي على حياة الإمبراطورية لولا ظهور أباطرة أجلو أموت روما بجهودهم، أعظمهم "دقلديانوس" (٢٨٤ – ٣٠٥) الذي رأى في اتساع رقعة الإمبراطورية خطرا قد يؤدي إلى انحلالها فقسمها إلى أربعة أقسام على كل منها وال من قبله ثم أدخل عدة إصلاحات قوت من شأن الحكومة المركزية.

وأخيرا حكم قسطنطين الأكبر (٣٠٦ – ٣٣٧) فأعاد تنظيم الحكومة ونقل عاصمة ملكه إلى مدينة بوزنطة التي كانت أهم المدن التجارية الإغريقية وأطلق عليها القسطنطينية نسبة إليه، ولعل قسطنطين اختارها عاصمة له لمناعتها وتوسطها بين أملاكه، وكان لنقل العاصمة إلى بوزنطة آثار كثيرة أهمها ما يأتي:–

(١) انتقل مقر الحكم الروماني إلى بلد إغريقي، فتأثر الرومان بمظاهر الحضارة الإغريقية وحلت اللغة الإغريقية محل اللاتينية لدرجة أنها أصبحت اللغة الرسمية.

(٢) كان انتقال الإمبراطور إلى بوزنطة داعيا إلى تقوى الباب في روما فأصبح ينظر إليه كحامي روما من غارات البرابرة فوق ما كان يتمتع به من الرئاسة الدينية.

وبعد قسطنطين قسمت الإمبراطورية بين أولاده الثلاثة، وفي خلال القرن الرابع توحدت مرة أخرى، وأخيرا أدت هجمات البرابرة على روما إلى

تقسيم الإمبراطورية إلى قسمين، الإمبراطورية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية والغربية وعاصمتها روما عام ٣٦٥، وقد سقطت الإمبراطورية الغربية على يد القوط عام ٤٧٦، أما الدولة الشرقية فقد استطاعت مقاومة هجمات السلاف والقوط والبلغاريين والفرس والعرب، ولم تسقط إلا على يد الأتراك العثمانيين عام ١٤٥٣ م.

الفصل العاشر

نظام الحكم الروماني

وصفنا الحكومة في ظل الملكية الأولى في روما فقلنا إنها كانت ملكية بطريرقية شبيهة بالملكيات الصغيرة التي وصفها شاعر الإغريق (هوميروس)، وقلنا إن الملك (تاركوين) استبد برعاياه فطردوه وأسقطوا الملكية سنة ١٥٠ ق. م وأقاموا الحكم الجمهوري، ووصفنا الحكومة في ظل الجمهورية فقلنا إن السلطة كانت مودعة في يد اثنين من القناصل تنتخبهما الجمعية العمومية لمدة سنة واحدة، وإن مجلس الشيوخ كان يقدم رأيه للقنصلين ولكن ليس له أن يقيدهما بتنفيذه.

وفي عهد الإمبراطورية ضاعت أهمية مجلس الشيوخ القديم، الذي كان مبعث الهداية والرشاد وموضع القوة وأصبح مجرد هيئة قضائية عليا، وأصبح منصب القنصلية مجرد منصب فخري ليس لصاحبه صوت مسموع في إدارة الدولة، وفي عهد الإمبراطورية نشأت ظاهرة جديدة هي وراثة المناصب الكبيرة التي أصبحت وقفا على بعض الأسرات دون غيرها.

وكانت شخصية الإمبراطورية مقدسة يعبده الرعايا في كل أنحاء الإمبراطورية ويقدمون البخور والقرابين لتمثاله، ولكن المسيحية بزلت بالإمبراطورية من مرتبه الرب إلى مرتبة القديس، وبقى لموظفي الحكومة ما كان لهم من الاحترام والقوة على أساس أنهم قريبون من القديس الكبير،

وكان يعتمد الإمبراطور في كل شئون التشريع على مجلس جديد أطلق عليه "مجلس الدولة".

وكانت مراسيم الإمبراطور تصدر من روما وتنفذ في طول الإمبراطورية الرومانية وعرضها، وكانت مشيئة الإمبراطور هي القانون الأعلى، وكان يبعث بالموظفين الذين يشرفون على دقائق الإدارة في البلاد البعيدة، وكانت الحكومة فوق إقرار العدالة وحفظ الأمن والدفاع عن الحدوج تهتم بمراقبة تجار الحبوب والقصابين والخبازين مراقبة شديدة، وتحارب الفوضى والاحتيال وترعى الضعيف والرقيق ويحمي الأحرار الفقراء من عسف الأغنياء والعمال من استبداد أصحاب الأعمال، والآباء من عدم وفاء أبنائهم، وترغم كل شخص أن يخلف صناعته لابنه، وكانت تمد الطبقات الفقيرة في المدن بالمال والطعام واللباس، وجاوزت هذا إلى إقامة الملاهي لهم لتصرفهم عن التفكير في السياسة، وبالاختصار فقد كانت الحكومة في روما تعمل على تنظيم كل مرافق الحياة في الإمبراطورية الرومانية بأسرها.

الفصل الحادي عشر

المدينة الرومانية وأثرها في التاريخ

لم تقم أوروبا الحديثة إلا على أنقاض الإمبراطورية الرومانية، ولم تنشأ الشعوب الأوروبية الحديثة إلا في ظلال الحضارة الرومانية، والمشاهد أن قوة روما كانت عظيمة لدرجة أنها لم تمت فجأة بل احتاج موتها إلى تدرج طويل، ولذا يصعب أن نحدد بالضبط متى ينتهي التاريخ الروماني، فكل شعب من شعوب أوروبا الحالية مدين لروما بدين عظيم، والكثير من هذه الشعوب لا يزال يطلق عليها الشعوب الرومانية، وهي لا تزال تستخدم لغات من أصل لاتيني، فمثلا الفرنسيون والإسبان والإيطاليون يتكلمون لغات من أصل لاتيني أما الألمان فرغم أنهم يتكلمون لغتهم الألمانية فإنهم هم والإنجليز الذين يعتبرون فرعا منهم مدينون لروما بأصول نهضتهم وقواعد تمدنهم.

وأهم أثر لروما تراه واضحا في البابوية حتى اليوم فمنذ قلت أهمية روما في سياسة الدولة عظمت أهميتها في سياسة الكنيسة، ولما كان الناس جميعا ينظرون إلى روما كوسط للثقافة ومقر للقانون والحكم فمنذ انتقل الإمبراطور إلى (بوزنطة) نظر الماس إلى أسقف روما كحامل لواء القانون والحكم واعتبروه المرجع الأعلى لهم فيما له علاقة بالتشريع والأنظمة الدينية، ومنذ فقدت روما زعامتها على الإمبراطورية الوثنية العالمية أصبحت زعيمة الإمبراطورية الجديدة.

وبرغم أن دول أوروبا خرجت عن طاعة الإمبراطورية وأقامت الملكيات المستقلة الكيان فإن معظم الشعوب الرومانية بقى مواليا للبابا في روما وخاضعا لنفوذه الديني.

وبالاختصار فإن شعوب أوروبا أخذت عن روما قوانينها ودينها المسيحي ومظاهر حضارتها واستعانت بكل هذا في تدعيم قوميتها.

وتتلخص أهم مظاهر الحضارة الرومانية فيما يلي:

(١) القانون الروماني، وهو الميراث الذي تركته روما من بعدها للعالم، وقد نص على حماية الزوجات والأطفال من قسوة عائلهم وقال إنه خير في نظر العدالة أن يفر المجرم من طائلة العقاب من أن يعاقب البريء، وكان القانون الروماني يعتبر المجتمع الإنساني جماعة واحدة تخضع لقانون واحد وملك واحد هو الإمبراطور.

(٢) اللغة اللاتينية التي أخذت عنها شعوب أوروبا لغاتها الحديثة.

(٣) الحضارة الإغريقية التي ورثها الرومان ونقلتها شعوب أوروبا إلى لغاتها الحديثة في حركة أحياء العلوم.

(٤) المسيحية وسيادتها على شعوب الإمبراطورية وبقاء البابونية رمز الوحدة المسيحية العالمية.

الفصل الثاني عشر
مصر ولاية رومانية

قدمنا في تاريخ البطالمة علاقة مصر بروما فقلنا إنها كانت في عهد بطليموس الثاني قائمة على أساس الصداقة والمساواة، ولكن لم تلبث مصر أن أصبحت تحت حماية روما منذ ضعف ملوك البطالمة ثم صارت مصر ولاية رومانية في عهد "كليوباترا" آخرة ملوك البطالمة.

وكانت الإسكندرية في عهد البطالمة الوارثة الحقيقية لمجد أثينا العلمي، ولكن منذ احتلها الرومان ضاعت أهميتها العلمية وأهملت الفنون وانقلبت مجرد حقل لإنتاج الغلال وإرسالها إلى روما، أضف إلى هذا أن حالتها الداخلية لم تكن مستقرة فكثيرا ما قامت الفتن الداخلية بين طوائف الإغريق واليهود، أو بين المصريين والجنود الرومانية ويتميز الحكم الروماني لمصر فوق هذا باضطهاد الولاة والأباطرة للطوائف المسيحية.

أما الحكومة فقد أبقاها الرومان على ما كانت عليه أيام البطالة ومعنى هذا أن حكام الأقاليم بقوا في مناصبهم يساعدون الحكومة المركزية في الإسكندرية، وأصبح المرجع الأعلى لهؤلاء الحكام هو الوالي الروماني الذي ينفذ مراسيم الإمبراطور ويرعى مصالح الإمبراطورية، وكان يساعده في الحكم ثلاثة من كبار الموظفين يحكمون باسمه مصر العليا والوسطى والسفلى، وكان الوالي فوق هذا هو الرئيس الأعلى لجيش الاحتلال.

وبرغم سوء الحال الداخلية فقد ظهر بعض الأباطرة الذين اهتموا بتعمير مصر، فمثلا أعاد "تراجان" حفر الخليج القديم الذي يصل النيل بالبحر الأحمر وجدد بنا حصن نابليون الذي يعزي إلى عهد الفرس وأتم معبد فيله (قصر أنس الوجود) المقام على جزيرة في النيل قرب أسوان.

وبعد تعهد "تراجان" أهمل كل إصلاح وساءت الحال حتى جاء عهد "دقلديانوس" الذي نظم جباية الضرائب لما فيه مصلحة الأهالي فأحبه أهل الإسكندر ونصبوا له (عمود السواري) تخليدا لذكراه ولكنه كان يضطهد المسيحين ويعمل على القضاء عليهم لأنهم رفضوا عبادته فأقام لهم المذابح، ومن أشهر ضحاياهم في ذلك العهد "القديسة دميانة" صاحبة الدير الشهير في جهة بلقاس إذ رفضت الارتداد عن المسيحية وراحت ضحية التمسك بعقيدتها، واعتبر حادث إعدامها مبدأ التاريخ القبطي (٢٨٤ م) ويطلق على عهد دقلديانوس في مصر (عصر الشهداء) بالنسبة لكثرة الذين راحوا شهداء الاضطهاد.

ورغم أن (قسطنطين) جعل المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية إلا أن هذا لم يضع حدا للفتن الداخلية في مصر، فقد قامت المنازعات بين أتباع المذاهب المسيحية المختلفة وتعقدت الحال لدرجة مكنت الفرس من فتح مصر عام ٦١٧، ولكن الرومان استردوها ثانية، ثم ما لبثت أن سقطت في أيدي المسلمين حيث فتحها عمرو بن العاص.

الفصل الثالث عشر

ظهور المسيحية وانتشارها

كانت الديانات الشرقية الوثنية سائدة في أنحاء الإمبراطورية وإلى جانبها دين موسى عليه السلام، ولكن اليهود لم يحاولوا نشر دينهم بين الشعوب الأخرى ضنا منهم على الناس برحمة الله واعتقادا بأنهم الشعب المصطفى، فلما ظهر عيسى بين بني إسرائيل في فلسطين يبلغ رسالته لليهود اعتنق الفقراء دينه القائم على أساس المحبة الإنسانية والرعاية الإلهية وكان ذلك في عهد الإمبراطور "تيبيرياس" إلا أن الرومان أساءوا إلى عيسى وبقى مضطهدا حتى توفاه الله ورفعه عاليا وطهره من الكافرين.

وقام تلميذه بولص وهو حواري كان يشتغل بصنع الخيام فبشر بدين أستاذه في آسيا الصغرى وبلاد الإغريق وروما نفسها، وكتب حياة المسيح باللغة الإغريقية في أنجيله المعروف باسمه، وقام بعض أتباع المسيح مثل لوقا ومرقص ويوحنا بكتابة سيرة المسيح، ثم جمعت كتاباتهم كلها في كتاب واحد أطلق عليه (العهد الجديد) وتتلخص أسباب اضطهاد المسيحين فيما يلي:

(١) كان الرومان يفرضون على الشعوب التابعة لهم عبادة قيصر إلى جانب أقامه شعائر دينهم الخاصة، وكانت المسيحية تعارض هذا لأنها تبشر بالوحدانية.

(٢) كان المسيحيون يستنفذون جهدهم في نشر دينهم في أنحاء الإمبراطورية على نقيض اليهود الذين احتفظوا بدينهم لأنفسهم.

(٣) أعلن المسيحيون أن دينهم ينسخ كل العقائد الوثنية التي كانت تسود الإمبراطورية في ذلك الوقت وقالوا بأن المسيحية تمحو كل الفروق بين الطبقات الاجتماعية وتربط الإنسانية كلها برباط المحبة والمساواة.

وكان الرومان يهدمون كنائس المسيحين ويقتلونهم ويعذبونهم بالصلب وطلاء أجسادهم بالقار، بل أكثر من هذا أنهم كان يلقون بهم في ميادين المصارعة تنهشهم الوحوش، وكانوا يحرقون نسخ الإنجيل التي تصل إلى أيديهم، وبالاختصار فإن المسيحيين لاقوا في سبيل نشر دينهم صنوف العذاب والبلاء، ولكنهم ثبتوا على يقينهم فكان لهم الختام نصر مبين.

وبلغ الاضطهاد أقصاه في عهد (دقلديانوس) الذي أراد القضاء على المسيحية فاستباح دماء أهلها حتى سمي عهده في مصر (بعصر الشهداء).

وكان أول من اعترف بالمسيحية ورفع عن أهلها الظلم الإمبراطور قسطنطين الأكبر، ولكنه كان مع هدا يقر الوثنية لدرجة أنه سمح أن يبنى له معبد خاص لعبادته بعد موته.وفي عام ٣١٨ قام نزاع في الإسكندرية بين القسيس "أريوس" الذي أعلن أن المسيح مجرد رسول من قبل الله الذي خلقه بمحض مشيئته وبين الأسقف "أثناسيوس" الذي أكد أن مادة الابن من مادة الأب وأنه يساويه في اللاهوت وأعلن صحة القول بالتثليث.

وأدى هذا النزاع إلى عقد مؤتمر ديني مسيحي عام في نيقيه سنة ٣٢٥ برئاسة قسطنطين، وقرر المؤتمر بعد جدال عنيف تكفير مذهب (أريوس) وأطلق على مذهب "أثناسيوس" المذهب (الأرثوذكسي) أو الصحيح.

وكانت نتيجة هذا نشاط الوثنية من جديد حتى جاء عصر الإمبراطور "ثيودسيوس" (٣٧٨ – ٣٩٥) الذي أعلن سيادة المسيحية وحدها وحرم اعتناق الديانات الوثنية الأخرى، ومنذ ذلك الوقت بدأت سلطة الكنيسة تزداد حتى نافس الباباوات الأباطرة وقام بين الفريقين نزاع دام طول القرون الوسطى.

الفهرس